دراسات

صورة العراقي في الرواية العربية

زهير الهيتي




منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

صورة العراقي
في
الرواية العربية

زهير الهيتي

صورة العراقي
في
الرواية العربية

♦ Author : Zuheir El-Hetti

♦ المؤلف: زهير الهيتي

♦ Title: The Iraqi Model in The Arabic Novel

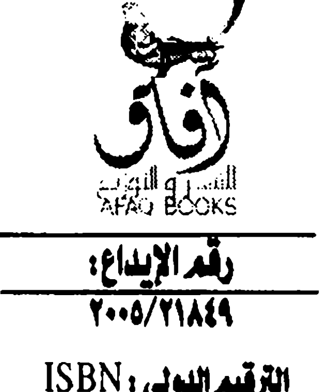
♦ العنوان : صورة العراقي في الرواية العربية

♦ First Edition: 2006

♦ الطبعة : الأولى ٢٠٠٦

♦ Cover Designby: Amr AL-kafrawy

♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوى



رقم الإيداع:
٢٠٠٥/٢١٨٤٩

ISBN الترقيم الدولي:
977-6148-13-1

٧٥ ش القصر العيني – أمام دار الحكمة – القاهرة – مصر تليفاكس : ٣٨١١-٧٩٥-٢٠٢+

Afaq Bookshop & Publishing House

75 QASR - ALAINI ST., in Front of Dar Al-Hekma, - CAIRO - EGYPT

Tel.fax : +202-795-3811 E-mail:afaqbooks@yahoo.com

مقدمة

كان اليوم الذي حصلت فيه على جنسية أجنبية، يوماً حاسماً في حياتي..أحسست فيه أولاً بالفراغ الذي يلفه الصمت المطبق..حافي القدمين أدوس أرضاً جديدة من الكلمات!

منها الوعر المؤذي ومنها الناعم..ومنها ما يشبه مستنقع الرمال المتحركة.. ومنها الندي كمياه الأنهار البكر التي ورد ذكرها في الكتب المقدسة.

ما معنى أن أكون شخصاً آخر..ليس أنا؟

في صباح اليوم التالي نظرت إلى وجهي في المرآة..شيء ما مفقود!..أم أني أتخيل؟.. استغوتني فكرة الغوص إلى أعماقي والبحث عن الشيء المفقود أو جذوري، وللإجابة عن سؤال لم يكن يعنيني قبل الأمس..من كنت؟ وبالتالي من سأكون؟..الحاضر بالنسبة لي لم يكن موجوداً..صعب العثور عليه إن وجد أصلاً.

صور قديمة مشوشة من الماضي مع كم كبير من الذكريات النائية وأخرى بلا ملامح مجهولة..من المستقبل!

نظرت إلى مكتبتي المتواضعة محاولاً الاستنجاد بعناوين الكتب فيها لاستحضار الماضي..لم تكن العناوين عربية خالصة، كان فيها الكثير من العناوين التي كتبت باللغتين الإنكليزية والألمانية وهذه كانت تدفع بي بقوة وحيوية نحو المجهول!

لم تسعفني المحاولة. عاودت البحث في أعماقي عن بقية هوية ممزقة، تساعدني في العثور على جواب لسؤالي.. من كنت؟

بابلي.. عربي.. أم عراقي!.. لاشك أن أخر هوية كنت أحملها تقول لي إنني كنت عراقيًا .. لكن السؤال الصعب.. هل كنت كذلك حقًا؟.. وإن كنت فعلاً.. فمن هو العراقي!

أنا لم أكن أعرف هذا المعنى من قبل..لم أعرف ما هو أن أكون عراقياً فقط! هل يعني هذا..حب الأرض.. الأهل، الجيران، الطبيعة، المدينة!؟.. كل هذه أشياء عمومية تعني شيئًا، وأن أكون عراقيا شيء آخر تمامًا ولابد.

عدت بتكاسل ثانية إلى مكتبتي.. هل أواصل البحث عن المعنى الذي بات يقلقني بين دفاتر رسائل إخوان الصفا أم في رحلة كلكامش الأسطورية، والتي لا تزال تشدني نحو أوروك!.. في مؤلفات الطبري أم في شعر السياب..شيء محير فعلاً!

لم أكتشف عمق مأزق الهوية – التي كنت أحملها - إلا بعد التخلي عنها.

إن الغرب الذي أنتمي إليه الآن لا يستطيع أن يحدد لي هويتي التي كانت، لكنه يحدد لي هويتي القادمة.. أو هكذا أتخيل الآن. أما الماضي فالصورة عائمة تماما، يمكن لها أن تمتد من باكستان إلى المغرب ومن الممكن أن تتقلص وتتحدد بمدينة بغداد فقط!..

لكن ماذا عن العرب!.. كيف كانوا يحددون هويتي كعراقي، ويعكسون ذلك التصور على أدبهم مثلا؟

قررت أولاً أن أبحث عن صورتي في أدبهم..أبحث فيها عن كل ما هو عراقي علِّي أرى صورة لهويتي الغائمة، لعل الغيوم تزول وأراها بوضوح..ممكن..مجرد محاولة ممتعة في النهاية!

برلين

٦/ ٢/ ٢٠٠٥

واسيني الأعرج

كان الكتاب الأول الذي استللته من المكتبة هو -وقع الأحذية الخشبية- للكاتب الجزائري واسيني الأعرج. والصادر عن (دار منشورات الفضاء الحر) في طبعته الأولى ببيروت عام ١٩٨١ والذي يقع في ٣٨٥ صفحة من القطع المتوسط

إنها قصة حب، أو قصص حب متداخلة بين شخوص متعددي الجنسيات والأديان.

كلهم عرب.. والأحداث تدور في سوريا. الكثير من النقاد ارتأوا أن هذا العمل هو رواية للسيرة الذاتية للكاتب الجزائري، لكن المؤلف رفض هذا التفسير وأنكره..

ما يهمني في هذا العمل الروائي، هو الحضور العراقي، الذي كان هامشيًا بشكل كبير وممثلاً بشخص واحد وبلا اسم!

إنه أقرب إلى الديكور (اليساري) في عمل يضج بالرفض الثوري للواقع العربي السيئ كما يرى المؤلف.. وهي أفكار كانت سائدة في منتصف القرن الماضي في العالم كله ومنه العالم العربي الذي يقع على حدود المركز الأوربي، وذات التوجه الاشتراكي المتأثر بثورة أكتوبر الروسية، كما النتائج التي تلت الحرب العالمية الثانية وانقسام العالم إلى معسكرين.. اشتراكي ورأسمالي.

الجزائر مثلا من البلدان العربية التي تأثرت كثيرًا بهذه الأفكار الاشتراكية وخلفيتها حرب التحرير الضارية التي خاضتها مع المستعمر الفرنسي، كما حداها أمل وإحساس كبير بالعدالة الذي استحوذ على جيل الثوار الأوائل..وجميع الكتَّاب الجزائريين، وخصوصاً منهم الذي كتب باللغة العربية، كانوا الأشد التصاقًا بهذه الأفكار.. أردنا بهذه الخلفية السريعة أن نسهل عملية إدراك طبيعة تفكير الكاتب.

إذاً من الطبيعي أن يكون العراقي الوحيد الممثل في الكتاب.. وإن كان بلا اسم. يساريًا..شيوعيًا مثلاً.. إنه شاعر، وهذه صفة التصقت بالعراقيين الهاربين من بطش السلطة العراقية، خصوصًا بعد انهيار الجبهة الوطنية وهروب نُخَب المثقفين العراقيين إلى دول الجوار قبل انتقالهم إلى المنافي البعيدة في أوروبا وغيرها، لعدم إحساسهم بالأمان، خصوصًا وهم يدركون قبل غيرهم هشاشة الأنظمة العربية التي (تحميهم) وعدم وجود المؤسسات الشرعية التي تمنحهم حقوق اللجوء المتعارف عليها في العالم الغربي، فهم يدركون أنهم قد يذهبون قربانًا لأول بادرة تقارب سياسي مع النظام العراقي!

العراقي يعمل في محل صياغة بإحدى الأسواق الشعبية بدمشق (كان يومًا جميلاً حين نزلنا إلى السوق الشعبية للصناعات الحرفية، وطلبنا من صديقنا الشاعر العراقي أن يختار أجمل صفيحة ويضع اسمك عليها بإتقان-٣٨١) هنا العراقي شخصية مبهمة.. شاعر يعمل في محل صياغة..هارب من بطش السلطة في بلده (تنام بهدوء صفيحة فضية كتب عليها، اسمك بخط كوفي جميل: مريم. نحتها شاعر عراقي

صديق لنا يعمل مع صائغ في الحميدية، هو لا يعلـم إن كـان وطنـه قـد فشل في حبه أم أنه من كثرة اندفاعه نحوه بـدا أنانيًـا أكثـر مـن الـلازم ومشاكسًا أو أنه الوحيد الذي يعرف كيف يحبه؟.. وجد نفسه ذات ليلة يقطع الصحارى والأهوار بحثًا عـن مخـرج مـن المقتلـة وهـو لا يعلـم بالضبط لماذا يريدون قتلـه. يحـدث لنـا مـن كثـرة حبنـا أن نتحـول إلى دكتاتوريين صغار في أشواقنا ونعمى عن التصديق بأن للآخرين كذلك قلبًا مثلنا-٥٥)

هنا يشير الكاتب إلى المأزق الخطير الذي مزق العراق السياسي، إثـر انهيار الجبهة الوطنية بـين الحـزب الشـيوعي العراقـي وحـزب البعـث العراقي الحاكم، وتنكيل الثاني بـالأول..(مخـرج مـن المقتلـة). لكنـه لم ينجح في إعطـاء هـذا الحـدث المهـم- لضرب أقـوى وأكـبر الحركـات اليسارية في العالم العربي- حقه من الأهمية.. بل مر عليه مرور الكـرام.. وكأنه حـدث يجـب علينـا استيعابه بشيء مـن الامتعـاض والقدريـة السلبية!

(شيء ما في المدن العربية يجعلها حزينـة دومـا حتـى وهـي في أقصى لحظات الفرح-١١١). إن إعطاء الكاتب لشخصه العراقي الهش وغير المسمى، صفة الشاعرية، هو في الحقيقة لإعطائه صفة أخرى يتميـز بهـا الشعراء، القلق، بل أحيانًا عدم الجدية!.. ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ﴾ قرآن كريم..عدم الاستقرار وتقلب المزاج، كـما أنـــه(أَنـاني أكثـر مـن اللازم)..و(مشاكسًا) هارب من (المقتلة) وأخـيرًا منفـي وذليـل، فهـو شاعر يعمل في دكان صياغة بسوق شعبية!..وبـالرغم مـن أنـه هـارب

ومنفي ومطلوب للقتل في بلده، لكنه لا يعرف (بالضبط لماذا يريدون قتله).

ثم يحاول الكاتب أن يحدث مقارنة بين الضحية والجلاد، فيتحول الأول إلى دكتاتور يدافع عن بلاده بدافع خير(الحب الأعمى) والثاني في مركز الأول، الشيوعي كالقومي!..يتبادلان أدوار الحب والقتل..الضحية والجلاد..لا توجد حلول وسطية..وهنا يقترب بشكل كبير من صفة جوهرية في شخصية الفرد العراقي المتخيلة في الذهنية العربية..التطرف!

كما يضفي صفة السلبية على العراقي والعربي عمومًا عندما يقول..(في بلداننا، كلما سقطت حجرة لا أحد يرجعها..تبقى هناك في مكانها حتى تلحق بها أختها، وهكذا إلى أن يندثر المعلم نهائيًا-١١٣).
وأخيرًا صفة القدرية المقرونة بنظرية المؤامرة الشهيرة التي سيطرت على العقل العربي ردحًا طويلاً من الزمن ولا تزال..

(الإنسان العربي هكذا، يولد ويموت في الهم، وكلما رأى شعاعًا صغيرًا في الأفق، شعر بتخمة من السعادة، وعندما يقترب يصفعه السراب القاتل.الإنسان العربي لا يعرف أنه كلما خطا خطوة إلى الأمام متحاشيًا المزالق السابقة، وجد في طريقه من يأخذ بيده ويزج به نحو الحفر والمدافن-١٢٥)

وأنا أتساءل.. ترى من أخذ بيد العراقي نحو الحفر والمدافن.. الآخر الغريب..أم كما يقولون..هذا ما جنته يداي؟!

عبد الرحمن منيف

صدرت الطبعة الأولى من ثلاثية(أرض السواد) عام ١٩٩٩ عن دارين للنشر (المؤسسة العربية للدراسات والنشر) و (المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع).

إن الروائي العربي الكبير عبد الرحمن منيف، يقف في الصف الأول للروائيين العرب، وإن كتابه هذا، هو في الحقيقة بحث مضني عن هوية العراقي المستلبة بل نذهب أبعد ونقول إنه ربما كان محاولة من الكاتب للبحث عن جذوره الممزقة والموزعة-جغرافيا- بين عدة مدن ولا نقول دول!.. تصل مكان الولادة بالمنفى.. أو المهجر كما يحلو للبعض تسميته!.. فهو من أم عراقية وأب سعودي ولد في عمان ومات في دمشق.. سحبت منه الجنسية السعودية، وعاش في مدن عديدة منها، بغداد والقاهرة وبيروت ولندن وباريس.. فالاضطهاد الذي لاحقه بسبب اعتناقه لأفكار سياسية معينة آمن بها، جعلت منه شخصًا ممزق الانتماء ومعدوم الهوية..لهذا اختار الهم العربي خيارا نهائيا، وبدا سلسلة من الكتب الروائية التي تتناول هذا الهم، حتى يمكن لأي قارئ عربي في أي بلد، أن يقرأ روايات منيف ولا يتطرق إليه الشك بأنها تتحدث

عن بلده، ففي النهاية كلنا في الهم سواء..وربما هذه هي المنطقة الوحيدة التي نلتقي بها متساوين..صامتين.

إن رواية(أرض السواد) ذات النفس الطويل- ١٣٩٤- صفحة وعلى ما فيها من هنَّات أدبية، وهذا شيء لسنا بصدده، إلا أنها مكرسة للعراق والعراقيين، ويمكن تسمية هذا السفر بالمرثية..مرثية الأرض، الطبيعة، الناس..الرثاء بمفهومه العام الذي يتحول في أقصى لحظات التأزم إلى سيمفونية وجع حزين. إنه الرثاء بمفهومه الشامل الذي يكرس السلبية، فعلى هذه الصفحات الممتدة على الوجع العراقي لأكثر من ألف صفحة، نرى إنساناً-عراقيًا-مغلوبًا على أمره، يرى ما يحب ينهار أمامه.. يبكيه.. ويعلن العجز التام وعدم القدرة أو ربما الرغبة في البناء ثانية.. ولو ترك له الأمر لما عاود البناء ولفضل البقاء في الأطلال ملتصقًا بالذكريات!

لكن هناك دائمًا.. حاكمًا.. رغبته على العكس من رغباتهم..قادم من وراء الحدود أو من الداخل.. يحمل الطموح لبناء صرح جديد من المدن العراقية القديمة المتعبة ليخلد نفسه وينقش على أنقاضها اسمه!

فهنا على- أرض السواد-كانت ملحمة الخليقة الأولى، وخلدت أسماء أوائل الآلهة والمغامرين والطامعين والمجانين، وبكثرة غير اعتيادية..الحكام الجبابرة!

تدور أحداث الرواية الثلاثية في العديد من المدن العراقية.لكن بغداد تبقى الساحة الأمامية والنهائية المؤثرة..كانت ولا تزال..فهي

ساحة الصراع بين الحاكم والمحكوم، بين الحكـام وناسـها، بـين ناسـها وناسها!..تدور أحداث الروايـة في بدايـة القـرن التاسـع عشر.في عـام ١٨١٧ وفيه يتولى الحاكم الجورجي داود باشا حكم البلد بتكليـف مـن الإستانة العثمانية..

يحاول منيف في هذا العمل الغوص بعيدًا في نفسية العراقي والبحث عن جذور هويته الممزقة والضائعة بـين الانـتماءات الكثـيرة..التاريخيـة منها والقبائلية والعرقية، الدينية والمذهبية..مستعينًا بنصفه العراقي مـن ناحية أمه للخوض في هذه المغـامرة الجريئـة..فلقـد حـاول أن يلمـس جذور هذه الشخصية القلقة.. المتلونة..المنغلقة، الصعبة على الباحثين!

خلال الحكم العثماني للعراق، الذي كان فيه البلـد مقسـم إدريًـا إلى ثلاث دويلات (وهي كذلك إلى يومنا هذا).. من هنا يبدأ منيف محاولة إمساك هذا الطرف وربطه بذلك في جهد، والحق يقـال خـارق.. لكـن هذا لا يعني أن جهده الخارق هذا قـد أصـاب في محاولتـه!.. فـإذا أراد المؤلف مثلاً الـوصول إلى جذور الألم في نفسية العراقي والحـزن الـدائم المهمين عليه، فإن عهد الاحتلال العثماني للعراق يبـدو متـأخرًا جـدًا في محاولته العنيدة للغوص إلى عمق الأعماق..كان عليه مثلاً أن يذهب إلى هناك..إلى أور مثلا..صحيح أنه استشـهد في بدايـة مؤلفـه بالنصـوص القديمة، وكان استشهادًا موفقًا، لكنه لم يفعل كما فعـل نجيـب محفـوظ عنـــدما غـــاص في أعـــماق الشخصـــية المصريـــة في(أرض طيبة)و(البعث).عمومًا هـو اختـار الـعصر المتـأخر نسـبيًا مـن المأسـاة

المستمرة لهذا البلد وتلك الشخصية، فكان الاحتلال العثماني، لكن السؤال، أي حقبة من هذا الاحتلال الظلامي الطويل؟..لقد اختار زمن المحاولة المتنورة التي قام بها داود باشا الذي كانت تحدو به رغبة جامحة لبناء دولة عصرية في مفهوم ذاك الزمن، مقلدًا فيها محاولة مدحت باشا في مصر.. لكنه، داود باشا، يصاب بخيبة كبيرة لأن الشعب الذي جاء ليحكمه على أجنحة أحلام العظمة، لم يكن على استعداد للاستجابة لكذا عملية تحديثية جريئة في معانيها وتفاصيلها..فهو لم يجد أمامه سوى ركام إنساني منهار..سلبي.. متشائم لم يكن يملك على الإطلاق الاستعداد الكافي للقيام بمهمة مساندة ا مشروع تحديثي صعب كهذا. لقد وجد أن العراقي ما زالت تتحكم فيه عقلية العبيد التي تمتد جذورها إلى هناك..إلى حيث الأبعد من تاريخه..بل من الممكن أن نقول إنها لا تزال تتحكم به إلى الآن!..بل إنه من الشعوب الأكثر عراقة في إحداثيات نظرية الاستبداد الشرقي والمجسد لها بشكل تراجيدي في أحيان كثيرة وتفاصيل أكثر..والتي يكون هو فيها أول مفرداتها الحزينة والدموية.

إن الصراع الذي حدث في ذاك الوقت-القريب البعيد- كما أراد المؤلف أن يصوره، وهو كذلك، هو صراع طموح أجنبي على أرض عراقية، أهم مفرداتها الإنسان العراقي نفسه..فداود باشا الجورجي الأصل، والـمُعَيَّن من قبل السلطان العثماني، يدير صراعه (الحضاري) أو مشروعه التحديثي في العراق ضد ريتش القنصل البريطاني الجالس

في الباليوز، وهي مفردة إيطالية تعني القنصلية البريطانية، وهو شاب طموح متسلح بالعلم والتكنولوجيا والتطور الحضاري، والأهم من ذلك القوة العسكرية الساحقة، حيث تقف خلفه الإمبراطورية البريطانية أقوى قوة في العالم آنذاك..إن داود باشا كان يحلم بأن ينفرد بحكمه للعراق وبالتالي الاستقلال به عن المركز–أسطنبول–وتأسيس سلالة حاكمة في بلد لا تربطه به سوى هويته الدينية–الإسلام– لكنه يصطدم بقوة أجنبية –بريطانية– كانت تعد العدة أيضًا لضم العراق إلى الإمبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس وبالتالي ربطه بمركز جديد هو لندن.العراقي هنا بالتأكيد هو المتفرج، ومساهم بقدر صغير، والسبب هو أن أيًا من أطراف النزاع لا يثق به ولا يستعين به إلا في حالات معينة مثل التجسس على الطرف الآخر!..لكنه بالتأكيد هو الضحية في كل الأحوال، فهو قدري التفكير والطابع..سلبي تمامًا..ينتظر والذباب يمشي على وجهه، من سينتصر في النهاية ليمارس هوايته الأزلية في التصفيق والانحناء للمنتصر والانقضاض على الخاسر لتمزيقه..بالرغم من أن هذه الصراعات كانت ولا تزال تدور على أرضه ومن أجلها وهو أول وآخر ضحاياها!

لقد كان المتخيل جميلاً في رواية أرض السواد، عن حياة العراقي في تلك الحقبة التاريخية، والتي لم تتغير كثيرًا حتى الآن!.. بل إنها تكاد تكون تواصلاً مملاً قاتلاً وكأنها ظاهرة طبيعية لا ينالها التغيير كشروق الشمس وتبادل الأدوار بين الليل والنهار!.. ففي الواقع لا يزال

العراقيون يعيشون بنفس الطريقة التي وصفها منيف.. - وكما قلنا- مستعينًا بنصفه العراقي والمستمدة من الأحياء الشعبية في بغداد والتي من المؤكد أن المؤلف قد زارها وخالط سكانها.. وإذا كانت العادات وأسلوب الحياة والتقاليد لم تتغير كثيرًا، فهل من المتوقع أن ترى تغيرًا في سلوكية الشخصية العراقية؟.. وإذا كان الصراع الأجنبي الذي تدور رحاه منذ ذاك الزمن على أرضه قد أنهكه حد الموت، فما بقي لديه ليعطيه؟

العراقي لا يملك أكثر من الأمل بحياة أفضل، وهذه هي أقوى أسلحته، إنه ليس آملاً بتغيير يقوم هو بابتكار مفرداته، لكنه أمل سلبي بأن يأتي التغيير على يد الآخرين، حتى ولو كانوا قادمين من وراء الحدود!..فمن يقرأ تاريخ العراق بعد انهيار الإمبراطورية العباسية، يجد أن العراق قد تقلب طويلاً على جمر الاحتلال الدوري للدولتين الأجنبيتين الكبيرتين المجاورتين له، ونعني بهما تركيا وإيران.. فبعد أن تخلص من حكم العرب الطويل له، جاء دور الصفويين الشيعة- إيران- والعثمانيين السنة-تركيا- حتى بدأنا نألف رؤية صورة استنجاد العراقي السني بالعثمانيين لنجدته وإنقاذ مقدساته من حكم الصفويين.. والعراقي الشيعي بالصوفيين لحمايته وإنقاذه من حكم السنة!.. كل هذا الصراع الطائفي جاء على حساب جثة مفردة مهمة في قاموس البلدان الحية واندثارها بشكل شبه نهائي في العراق، وهي كلمة (وطن)!.. فلم يعد العراقي يرى وطنه بحدود العراق الجغرافية، لكن

بحدود هويته الدينية المذهبية، والعراق بالنسبة إليـه، مكـان يسـتقر بـه وينتظر فيه.. خائفًا باستمرار من التغيير وغـير قـادر عليـه، ولم يتوقـف الأمر عند هذا الحد، بـل اسـتمر إلى يومنـا هـذا!.. فقـد أدى الاعتقـاد الخاطئ والراسخ في ذاكرة الشعب، بانتظار التغيير والنجدة من الخارج، إلى مسـاندة الإنكليـز خـلال اجتيـاحهم لبلـدهم لكـي يخلصـهم مـن الاحتلال العثماني الثقيل، وفي هذه المرة سجل الشعب ظاهرة غريبة هي الاستعانة بالآخر المغاير للهوية الدينية لأغلبية الشعب والمتعلقين بها!.. فالآخر هذه المرة هو المسيحي القادم لهم من وراء البحار.. ثم يعاد نفس السيناريو في بداية القرن الواحد والعشريـن أي بعـد مئـة سـنة، عنـدما جاءهم هذه المرة الأمريكان ، مصـحوبين بـنفس ذاك الـدليل القـديم ، الإنكليز ، ليخلصهم من حاكم عراقـي مسـتبد لم يقـدروا أيضـا عـلى التخلص منه بأنفسهم.. أي إنه نفس ذلـك الانتظـار السـلبي والأمـل الكاذب بيوم أفضل أقل عنفا وخسارة..كما لم يلعب العراقـي نفسـه أي دور في التغيـير الـذي حصـل.فـدوره كـما دائـما محـدد وهـامشي وسلبي..هناك وهنا..لقد أثبت لنفسه أن إرادته معطلة تمامًا، وأنـه غـير قادر على تحديد مسار مستقبله ومستقبل أجياله، تاركـًا ذلـك أبـدًا إلى الآخرين، وهو يدرك ذلك جيدًا وإن كان لا يجـاهر بـه تكـابرًا!.. لهـذه الأسباب نراه يجيد تمامًا أصول لعبة الانتقام التي تمرَّس عليها طـويلاً.. فبعد انهيار هذا الحاكم أو ذاك، تبدأ اللعبة المبهجـة التـي يتقنهـا.. هـي الانتقام من كل الآثار التي تذكره بماضيه الخانع، ولهذا السـبب وبـرغم

تعدد الحضارات الكثيرة التي سادت ثم بادت في العراق، لا توجد به آثار كبيرة كما في بقية الدول التي شهدت مثل هذا التنوع الحضاري كمصر أو المكسيك أو الهند!.. بل لقد وصل الأمر أثناء الاجتياح الأمريكي الأخير للبلد إلى أن لعبة الانتقام أخذت أبعادًا جديدة في أصول اللعبة التي يجيدها، فأخذ يعتدي على الذاكرة الوطنية للبلد وتاريخه البعيد والقريب..امتدت حملته الهوجاء إلى المتاحف والمكتبات ونبش القبور لسرقة الآثار وقطع الحلي الذهبية المدفونة منذ آلاف السنين حول معاصم الأميرات البابليات ورقاب الملوك الآشوريين..ففي مشهد مؤثر بثته كافة وكالات الأخبار أثناء فوضى سقوط بغداد، لشاب عراقي في منتصف العمر وهو يحمل قطعة من الحديد يهشم بها أحد التماثيل في متحف صدام للفنون وهو من أرقى المتاحف وأجملها بالرغم من بشاعة الاسم!.. وعندما سئل عن السبب صرخ في المذيع ووجهه يندفع إلى وسط الشاشة(مالتنا..) أي أنه لنا!.. والسؤال إذا كان يدرك أنه له، فلماذا يحطمه؟.. إن الانهيار المريع والهيستيريا الجماعية التي اجتاحت العراق بعد زوال نظام سلطة الخراب على يد الأمريكان مؤشر خطير وجديد في سلوكية الفرد العراقي لا تحمد عقباه..إن الخراب النفسي للشخصية العراقية أصبح شبه كامل ومتقنًا في تشويهه وأخيرًا وهذا هو المهم.. مخيفًا!..والسؤال الذي يحير جوابه..هل ثمة أمل في الإصلاح؟

إن ثقافة الفرهود موجودة بقوة وحضور لا يمكن التغاضي عنه..لها

جذورها في النفسية العراقية، هي ميراث الصحراء وثقافة الغزو التي أدخلها العرب القادمون من الصحراء وأصبحت بالتالي جزءًا من تكوين التركيبة النفسية للعراقي.. فإن الغزو من تقاليد الصحراء وهو نفسه بمقاييس هذا الزمن من تقاليد اللصوص، فالبدوي الذي لا يغزو هو ليس بفارس نبيل وبالتالي فهو جبان!

بالمناسبة إن أكثر العراقيين يعتزون لحد الآن بجذورهم البدوية ويفخرون بألقابهم التي استمدوها من العرب القادمين إليهم قبل أكثر من ألف سنة!..والمفجع بالأمر أن هذه التقاليد غير الأخلاقية ما زالت تدرس لتلاميذ المدارس على أنها تراث يعتز به!.. فمثلاً أسطورة الفارس المغوار(عنترة بن شداد) الذي أراد الزواج من ابنة عمه(عبلة) ورفض طلبه لكونه أسود اللون وابنًا غير شرعي، من قبل أبيها، لهذا فرض عليه مهرًا تعجيزيًا (ألفًا من النوق العصافير) وهي نوع من أنواع الجِمال الغالية الثمن بدونه لا يتحقق الزواج، وهنا قام الشاب الأسود بالإغارة على عدد من القبائل المجاورة ولكونه فارسًا مغوارًا، استطاع جمع هذا المهر وساقه إلى أبيها وتم الزواج!..المأساة تكمن في أن هذا السارق والقاتل يصبح مفخرة ليس لدى العراقيين وحدهم، بل عند أمة العرب كلها!.. كذلك يعتبر من أهم شعرائها!..أسطورته راسخة في الذاكرة والوجدان العراقيين، تبرران السرقة والعنف واللصوصية وعدم احترام القوانين، فالقوة هي القانون الوحيد الجدير بالاحترام، وكذلك تمزيق الروابط الأخلاقية الإنسانية مع الآخر المخالف وإحلال

بدلا عنها هذه الأمـراض الصحراوية القاسية..ليـس هـذا وحسـب، فعنترة بطل قومي تعاد قصته بأشـكال مختلفـة، عـبر مجـلات الأطفـال وأفلام الكارتون والمسلسلات التليفزيونيـة والأفـلام وتحفـظ أشـعاره وتغنى!

هذا مثل واحد من أشكال عديدة تعمم القيم غير الأخلاقية وتبثهـا في الذاكرة العراقية وأفقدتها الكثير من العقلانيـة والمنطـق..إنهـا ثقافـة مرعبـة سـاهمت وتسـاهم بشـكل كبـير في تـدمير القـيم الأخلاقيـة في الشخصية العراقية واستباحتها واغتصابها.لقد حاول الكثير من الكتاب القوميين أن يسوقوا هذه الثقافة المرعبة ونجحوا للأسف إلى حـد بعيـد في تسويقها، كما تحـاول اليـوم أجيـال مستنسـخة مـن نفـس أولئـك – الكتاب القوميين- أن يوجهوا أصابع الاتهام إلى المحتل الأمريكي بعـد استمرار مسـلسل الفرهـود العراقـي ضـد الدولـة ومؤسسـاتها بعـد الاجتياح، كون أن الأمريكان لم يهتموا كثيرا بحماية المتاحف والمكتبـات بقدر اهتمامهم بحماية وزارة النفط مثلاً!.. وهناك من ذهب إلى أبعد من هذا واتهم الأمريكان بأنهم قد تركوا عن قصد هذه الأماكن بدون حماية وشجعوا الرعاع والدهماء لاقتحام هذه الأماكن واستباحتها ومـن ثـم حرقهـا!..قـد يكـون هـذا (صـحيحًا)!..لكـن هـل هـذه هـي كـل الحقيقة؟..هل كان مطلوب من الأمريكي القـادم مـن وراء البحـار أن يحمي الذاكرة العراقية من الدمار وممن؟..من العراقي نفسه!؟

من سرق المتاحف وحرق الكتب ورقص في الشوارع على أشلاء موجودات الدولة العراقية، التي هي في النهاية دولتهم، أو يفترض؟!.. من سرق وحرق المدارس والبنوك والوزارات ومؤسسات الدولة العراقية..المساجد والكنائس.. إنهم هم أنفسهم الذين كانوا يجتاحون بغداد والمدن العراقية الكبرى بعد وفاة كل خليفة(حاكم) وتنصيب آخر إلى أن أصبح ذلك طقسًا من طقوس التتويج، موت الحاكم-في الغالب مقتولاً- يليه فراغ سياسي وأمني قصير، تستباح فيه المدن الآمنة ويروع ناسها من قبل الرعاع، ينصب حاكم جديد-في الغالب القاتل- يعيد الأمن بالقوة إلى المدن المنهوبة المستباحة، حتى يعترف له الجميع بالولاء.. ألم يفعل هذا صدام حسين حين قام بغزوته الشهيرة لضم الكويت بالقوة إلى العراق!

ألم يسهل نقل نفس الرعاع إياهم وهيأ لهم كل المواصلات المتاحة من طائرات إلى سيارات الأجرة لمهاجمة المدن الكويتية الآمنة وتفريغها من محتوياتها؟..

واهتم رؤوس النظام بسرقة البنوك وبيوت الأمراء والمؤسسات الحكومية؟.. ألم يرقص الشعب وطبل وزمر- مثلما سجد اليهود ذات مرة إلى العجل الذهبي بعد غياب موسى- وهم يسرقون الكويت!.. ألم تنطلق ألسنة الشعراء الحاضرة في كل نكبات العراق، لتمجيد هذه الغزوة كما كان يفعل أسلافهم في الصحراء قبل أكثر من ألف عام؟.. إن الذين سرقوا بيوت اليهود في فرهود عام ١٩٤١ وبيوت الكويتيين

في فرهود ١٩٩١ هم أنفسهم الذين سرقوا العراق كله في الفرهود الأكبر الذي تعرضت له بغداد بعد الاجتياح الأمريكي عام ٢٠٠٣ !

صحيح أن الكثير من مسؤولية الفوضى والفراغ السياسي يتحمله الأمريكان، لكن هذا لا يكفي أبدا لأن نلقي اللوم كله عليهم وتبرئة الفرد العراقي من بشاعة تصرفه وتبريرها، فنحن لم نشاهد الفرنسيين مثلاً، وهم يهشمون جدران متحف اللوفر لسرقة محتوياته وبيعها على الأرصفة في عواصم الدول المجاورة، بعد الاجتياح الألماني لهم واحتلالها وسقوط الدولة الفرنسية، أو قرأنا أنهم هاجموا مكتباتهم وأحرقوها أو سرقوا التماثيل الموزعة في شوارعها!..إن عملية الإعدام الهمجي الذي مورس على الذاكرة العراقية يتحمل جزءها الأكبر الفرد العراقي نفسه، حاكمًا ومحكومًا، وذلك بسبب عدم توفر أساسيات الوعي وبسبب غياب الحس الوطني والدمار الأخلاقي الذي انتهى إليه.

طبعا هناك الكثير من الشخصيات الرجالية والنسائية في هذا العمل الملحمي ومن مختلف الأعراق والأديان، ولقد حاول المؤلف إضافة نوع من التميز على كل شخصية..أحلام خاصة، تصرفات مختلفة ، طبقات متمايزة اجتماعيا، سلوكيات متناثرة من أقصى الشر إلى أقصى الخير، لكنه في النهاية كان مكبلاً بالحدث التاريخي والالتزام بسياقاته، لهذا لم يستطع أن يخرج العراقي من محيطه المتخلف، حيث لم ترتق شخوص منيف إلى مرتبة أعلى كما كان يحاول أو يريد.كإخراجه من محيطه المتخلف. ماعدا شخصية-بدري- لكنه أجبر في النهاية إلى قتل هذه الشخصية

الإيجابيه لكي يخبرنا أن الشذوذ لا يخرج عن حدود القاعدة، أي لا مخرج للعراقي من عبوديته الأزلية.

هناك الكثير من الفعالية الايجابية في تكوين الشخصية العراقية في ثلاثية أرض السواد.فهو يبدو ذكيًا، متوقدًا، عارفًا بأصول اللعبة السياسية الدائرة في البلد، يقدر الخير ويكره الشر، راغبا في التغيير الإيجابي.. لكن!.. كل هذا يبدو محاطًا بدائرة وهمية محكمة الإغلاق، كأنها القدر الذي لا يستطيع منه فكاكًا!..فالطباع السلبية التي تطبع عليها العراقي طوال عهود القهر السياسي والإنساني، ورسوخ عقلية العبيد في تفكيره، منذ أن هربت الآلهة القديمة من الأرض إلى السماء وبداية ظهور أنصاف الآلهة من البشر، فالملوك والكهنة، ثم الخلفاء ورجال الدين، الذين كانوا ولا يزالون يفسرون الدين أو الأديان كل بحسب انتمائه العرقي أو الطائفي وحسب رغباتهم الدفينة، جعلت من العراقي متلقيًا غير عادي مكبلاً بقيود الطبع غير قادر على كسر الدائرة الجهنمية التي أحكمت طوقها من حوله..أي أن الصفات الإيجابية التي أسبغها المؤلف على الكثير من شخوصه وهي صحيحة، لم تنجح في النهاية في تغيير المعادلة وإخراجه من الدائرة، فبقي مستسلمًا للحاكم الجائر، كما استسلم للفيضان الذي كان يكتسح كل منجزاته بلحظة واحدة ويتركه عند نقطة الصفر من جديد.. وأبقته تابعًا سلبيًا لمنصب الحاكم ورجل الدين وكثيرًا ما يتمازج الاثنان، ليصبح المتلقي والوسيلة في نفس الوقت. إن رجال الدين، الذين كانوا ولا يزالون على استعداد مخيف للي ذراع أي ديانة وتطويعها لرغبة الحاكم ثم جعل التعاليم

الدينية كالأسواط الحديدية، تلهب ظهور الجموع العراقية منذ كانوا ولحد الآن، وجعلهم أناسًا غرائزيين، وليسوا عقلانيين بعد أن حرم عليهم التفكير!..توقفوا عند مرحلة عمرية معينة من تاريخ النمو الطبيعي للأمم والشعوب، وحتى بعد انهيار سلطة الخراب الصدامية على يد الأمريكان، سارع رجال الدين إلى تطويق مرحلة يمكن أن يستشف منها بداية استرداد الوعي المفقود، وأعادوهم إلى تلك التبعية وحولوا الانتخابات الحرة الوحيدة في التاريخ العراقي القديم والحديث إلى بازار ديني طائفي، معلنين فيها للمرة الألف عدم قدرتهم على النضوج الفكري وحاجتهم الماسة إلى مجتمع بطريكي لحين وصول الحاكم الجديد الذي سيبدأ معهم دورة جديدة من الدورات التي اعتادوا عليها ليلهب ظهورهم بسياط الظلم منتظرين لحظة سقوطه لتمزيقه، فهم أعلنوا في هذه الانتخابات عدم قدرتهم على تجريب طريق آخر للوصول إلى الحرية الإنسانية التي يستحقها كل البشر في كل مكان من الأرض. إنها دليل آخر وآخر على تبعية هذا الشعب وعدم نضوجه الفكري، وهي تبعية لا تعطي أي دليل عافية عن كونه لا يزال جسدًا ينبض بالحياة، إنه كالراقد في الكوما، ينتمي إلى الحياة ولا يفعل!

استطاع منيف أن يرسم صورة جميلة للتنوع العراقي أو ما يعرف بالموزاييك العراقي، وفي النهاية هو تنوع مثير للدهشة، أديان مختلفة، أعراق متباينة، أشكال لا تتشابه، عادات كثيرة..تجانس وتنافر..وهذا التنوع المثير مهم في تكوين الشخصية العراقية، ولو لم يكن عبد الرحمن منيف ذا نصف عراقي وعاش في العراق سنوات طويلة لما استطاع أن

يرسم هذه الصورة الدقيقة والجميلة لهذا التنوع، خصوصًا منه الديني، فالحضور الديني يمتد في العراق إلى سنوات بعيدة جدًا، استطاعت الأديان الثلاثة الكبرى، اليهودية والمسيحية والإسلامية، بالإضافة إلى الملل والنحل المتفرعة عنها، أن تعيش بسلام مدهش في هذه البقعة الجغرافية، وكان العراقيون قد رسموا حدودًا غير مرئية بمهارة فائقة، تجنب أي احتمال للاصطدام بين الأديان على أرضه.

كان صراع الإمبراطورية البريطانية مع العثمانيين وحاكمهم داود باشا للاستيلاء على أرض السواد، هو دورة جديدة من دورات العنف الذي تجتاحه بين الفترة والأخرى كنوبات مرض الصرع.. لتتركه بعدها ممزقًا خائر القوى، ويستطيع المتتبع للتاريخ العراقي أن يرصد بوضوح هذه الدورات العنيفة التي تجتاحه كالأعاصير، ولا يعرف العراقيون بأي وقت تضرب كيان البلد شبه المستقر وتهزه بقسوة لترميه أرضا يذرف الزبد والدم من فمه، والدموع من عينيه..

فمنذ البدء ولحد الآن يملك العراق تاريخًا طويلاً ومنتظمًا من دورات العنف المدمرة هذه، قد تتأخر قليلاً، لكنها في النهاية تأتي ولا تخذل أحدًا!..والعراقيون أصبحوا أشبه بالفئران التي تتنبأ بقدوم هذه الدورات ويشعرون بتجمع بوادرها في الأفق، لكنهم لا يفعلون أي شيء لاتقائها!.. فمن ألسنة الكبار، رجالاً ونساءً، نسمع على الدوام عندما كنا صغارًا، بخطر وحتمية هذه الدورات العنيفة.. لا نصدق.. نضحك من تخلف منطقهم، لكن..لا يمر عمر أحدنا إلا ويرى بعينيه

واحدة على الأقل من هذه الدورات الرهيبة وهي تعصف بنا وتتركنا عراة في مواجهة برودة التاريخ.. ومعها تكبر حيرتنا، ونعود لنبش الذاكرة، نبحث فيها عن آثار الأولين، نحاول أن نتجنب الدورة المقبلة..نروي نبوءتنا لأطفالنا، لكن من حيث ندري أو لا ندري.نحن نشارك بها ونمهد لها.. فهل هذا هو ما يسمى بالقدر!

يبدو لي كذلك.. حتميًا ولا يقبل الإلغاء.. نحن وقوده وموقدوه..هل نحن بحاجة أولاً إلى ميثاق وطني يحرم العنف. هل نحن قادرون على تجنبه؟..والسؤال الأهم، هل نحن راغبون في الشفاء؟

إن منيف قد صور ببراعة واحدًا من أقسى مشاهد العنف في بداية دورته، وهو المشهد المألوف في الذاكرة العراقية، إنه مشهد قتل- سيد عليوي – رئيس الإنكشارية ل –سعيد باشا – الحاكم السابق، وفصل رأسه عن جسده وهو يحتمي في حضن أمه!.. إنها واقعة ليست من خيال المؤلف بل هي تاريخية مثبتة ومتفق عليها في كتب التاريخ، وهذا يستدعي منا المقارنة مع تاريخ العراق الحديث القريب من المشهد السابق، إنه مشهد قتل العائلة المالكة في العراق على يد(ثوار) عام ١٩٥٨ الذين أسسوا أول جمهورية عراقية حديثة، على جثث هذه العائلة التي تناثرت هنا وهناك، وتلقفتها أيدي الجماهير وطافت بها شوارع بغداد كالضباع الجائعة لرائحة الدم..كانت أم سعيد باشا تبكي وتحتضن ابنها وتطلب له الرحمة التي لم تأت، كذلك كانت الملكة عالية، لكن الرحمة لم تأت أيضا.. التشابه يصل إلى حد كبير من القسوة، وفي

كل مرة يعيد نفسه بغير التواريخ وبغير الوجوه وبغير الأسماء!.. لكنه.. هو هو نفسه.. العنف العراقي، والمدهش أن هؤلاء المشوهين الذين يطوفون بالجثث أثناء انفلات دورات العنف، هم أنفسهم الذين يقيمون المندب والمراثي، ويرددون الأشعار لاستدرار بكاء الناس على المغدورين.. بكاء الأجيال، بعد أن يتضح لهم أن من نصبوه حاكمًا عليهم بصراخهم وتصفيقهم لا يختلف عن سلفه..وهكذا بكل سهولة ولا عقلانية، يتحول الجناة إلى أبرياء، والأبرياء إلى طغاة!..في النهاية يغيب هؤلاء ولا يبقى لهم سوى جلد الذات والبكاء المر، والاستعداد البطيء للجولة القادمة من العنف.. ثم يضفون على قتلاهم البعيدين والقريبين صفات ومزايا تصل بهؤلاء إلى مصاف الأنبياء والقديسين، لو وفروه لهم في حياتهم لتغير الكثير من تاريخ البلد، فلو وقف العراقيون مع الحسين ابن الإمام علي في تلك الأيام السود، وما تخلو عنه بكل خسة وذل وجبن، لتغير الشيء الكثير!..لو وقف نفس الشعب بعد أكثر من ألف سنة مع عبد الكريم قاسم مؤسس الجمهورية العراقية الحديثة ضد مجموعة (الثوار) المغامرين، لو لم يتركوه محاصرًا ووحيدًا في وزارة الدفاع، ثم ليقتل ويبصق على وجهه أمامهم من على شاشة التليفزيون، وهم الذين كانوا قبل مقتله يرقصون له في الشوارع ليل نهار ويقسمون بأغلظ الإيمان أنهم قد شاهدوا صورة وجهه مرسومة على القمر، لتغير الكثير في البلد..إنهم أنفسهم الذين يبكون الآن على نوري السعيد، رئيس الوزراء في العهد الملكي، ويثنون على كفاءته السياسية ودهائه ووطنيته!.. لكن بعد أن سحلوا جثته في شوارع بغداد، إلى أن تحللت

وشبع أسفلت المدينة من دمه ولحمه وبقايا عظامه!.. وقبل أن يجتاحهم والبلد تيار فاشي أغرقهم بالدم وكدس جثثهم، وقبل أن يكشف عن وجهه الشيطاني، كان الشعب نفسه يرقص في الشوارع إلى حد الإعياء وتجرع آخر قطرات الذل، وفي النهاية انهالوا على صوره ضربًا الأحذية!

حاول عبد الرحمن منيف، متأثرًا بأفكاره القومية، التي اعتنقها خلال حياته السياسية، أن يضفي صفة التضامن والتعاون على كل العراقيين، ويوحد مشاعرهم السياسية تجاه الاحتلال الأجنبي الاستعماري والذي كان قد ابتدأ لتوه من قبل الدول الأوربية وتقسيم تركة-الرجل المريض- أي بقايا الإمبراطورية العثمانية- خصوصًا في المشهد الأخير من العمل، عندما وجه داود باشا مدافعه نحو الباليوز أو مقر القنصلية البريطانية، فقد أظهر أن كل العراقيين بمعنى رمزي، أنهم ضد الاحتلال الأجنبي. لكن الواقع لم يكن كذلك، فالعراقيون متضامنون مع بعضهم البعض لكن إلى حدود معينة، وهي بالتأكيد ليست مطلقة. فعندما دخلت الجيوش البريطانية إلى العراق لاحتلاله بدايات القرن العشرين، انقسم العراقيون على أنفسهم.. فالمسيحيون منهم والعرب السنة كانوا مع الاحتلال..الأكراد منهم والعرب الشيعة كانوا ضده، فكل مجموعة دينية أو عرقية قد أجرت حساباتها في الربح والخسارة وحدها وكما يناسب وضعها، وعلى أساس هذه الحسابات كانت المواقف (الوطنية) ، ولقد تكرر هذا الأمر بشكل مدهش بعد قرن من الزمان، فبعد دخول الجيوش الأمريكية، وقف الأكراد والشيعة مع الاحتلال، أما السنة فقد رفعوا لواء المقاومة!.. إنها بالتأكيد

نفس تلك الحسابات القديمة في ميزان الربح والخسارة، وهذا يعطي دليلاً آخر وقويًا على أن أخلاقيات وأولويات العراقي -بكل موزاييكه- لم تتغير أبدا، فهم لم ينظروا إلى الاحتلال الأجنبي في المرتين على أنه حدث يحتم عليهم فيه الارتقاء فوق حسابات الربح والخسارة البغيضة وينسيهم إياها للوصول إلى مصاف كلمة عليا وسامية وهي(مصلحة الوطن) فالمصالح النفعية لها الأولوية عند العراقي. وما حاوله عبد الرحمن منيف هو نوع من أنواع الأساطير القومية التي لا وجود لها..أو أمنية!

فهناك في الحالتين (مُرحبِ) بالاحتلال و(آخر مندد به)، ولو وضعت دوافع الطرفين(العراقيين) على مشرحة المنطق، لظهرت النتائج بما لا يقبل الخروج عن حسابات(الربح والخسارة) وأن كلمة (وطن)جوفاء ومطاطة بل غامضة، تمامًا كصفة (الخيانة العظمى) التي يتبادلها الطرفان، لكن خيانة من، وكلاهما قد خان الوطن، تلك الكلمة التي لم يتحسس بها سوى قلة من النخبة المثقفة الواعية. إذا عدنا إلى الوراء أكثر لفهم هذه السلوكية الغريبة، نجد نفس الحسابات تتكرر ونفس الصفات تطلق مع كل احتلال دوري متبادل بين الإيرانيين والأتراك لهذا البلد!..وهذا السلوك يُغيبُ تمامًا مسألة الولاء للبلد والتضامن من أجله عند تعرضه لخطر الاحتلال، بل إن (التضامن) يفرز في كل مرة سلوكية (الدليل) لتسهيل مهمة المحتل الأجنبي، الذي يشهد تاريخ العراق على أن أيًا من الجيوش المحتلة له قد صادفت مقاومة فعلية من قبل الشعب، فعادة الدولة التي تحتل العراق هي التي

تقاوم بجيوشها المحتل الجديد، والعراقيون هم فقط ضحاياها بامتياز، وبهذه السلوكية التبعية والخانعة، مزقوا بأيديهم (الهوية) العراقية بشكل مخيف ومدهش..ونشروا بينهم ثقافة الموت الدوري والماوراء والأدعية عند كل أطياف (الموزاييك) الغريب والجميل!

أما السياسيون العراقيون فهم بنظر الشعب، عبارة عن أناس تجمعت فيهم كل أنواع الدناءة البشرية والخسة والانتهازية والقسوة، وهذا فيه الكثير من الصحة، أما الحكام فيبادلون الشعب الذي عادة باسمهم يحكمون، نظرة سلبية أخرى، فهم بنظرهم أن الشعب خامل متكاسل لا يمكن الركون إلى ثقته، غادر كمياه دجلة التي ضمت مياهه الكثير من جثث الحكام، يجب معاملته بقسوة حتى يرتقي إلى مصاف الأمم المتحضرة!..لم يفكر أي من الطرفين بأنهم كلهم ينتمون إلى نفس صحن الحساء!.. نفس المزايا، نفس الرؤيا، لكنها تختلف باختلاف الموقع..يوعزون كل بؤسهم إلى الحاكم الجائر، حتى لا يواجهون حقيقة سلبيتهم ويعترفون بها ليتسنى لهم الوقوف على أول درجات سلم الشفاء..والحكام يلقون باللوم على الشعب النمرود وعدم استعداده لإبداء الاستجابة للطموحات التي سترتقي به والقبول بالتضحيات!.. إنها في الواقع ثنائية موت خطيرة لا تقبل القسمة على اثنين، لهذا نجد أن أغلب الحكام في العراق ومنذ زمن بعيد جدًا بلا قبور!..والعراقيون والحق يقال من الشعوب المتميزة جدًا في إزالة آثار الماضي على الرغم من تعلقه الشديد في الذاكرة!

إن التاريخ المعين هنا في (أرض السواد) يصبح بلا دلالة محددة، عائم، كمياه دجلة التي من الممكن أن يصيبها الجنون وتكتسح كل شيء بلا رحمة..يغرق كل مساحة تاريخ هذا البلد ليصل إلى البدايات الأولى..وممكن أن يضيق مجراه تحت حرارة شمس تموز الحارقة، ويتحول إلى جدول صغير يروي حكايات متعبة عن الاحتلالات ودورات العنف..

لقد حاول المؤلف أن يقارن بين طبيعة العراق وطبيعة بشره، حيث تتجمع في الاثنين كل المتناقضات، فمن أقصى الجمال إلى أقصى حدود القبح، والمعروف أن الإنسان يتكيف مع البيئة التي يعيش فيها!.. أيًا كانت وأين كان!

رشيد الضعيف

إن رواية (معبد ينجح في بغداد) هي للكاتب اللبناني رشيد الضعيف..صدرت الطبعة الأولى عام ٢٠٠٥ عن منشورات – رياض الريس– في بيروت.

الرواية تتألف من ٢٢٢ صفحة من القطع الكبير، تتحدث بكل بساطة عن مغنٍ.. هذا المغني المولود في الحجاز، يهاجر إلى بغداد.وبذلك يؤسس رشيد الضعيف خلفية العمل الروائي عن هذه المدينة التي اختارها لتكون ملعب أبطاله.. صحيح أن هناك بعض المدن العربية الأخرى التي يرد ذكرها في هذا العمل، إلا أنها تبقى تكميلية وليست أساسية، وكما هو واضح من عنوان الرواية.

لكن أي بغداد؟

إنها بغداد الأمين والمأمون..قابيل وهابيل العصر العباسي الإسلامي..حيث الصراع الطموح على كرسي الخلافة المدمى دائما، والمشيد على صرح من الجماجم.منذ أن خرجت الخلافة الإسلامية من الحجاز، والذي ينتهي كما نعلم بنهاية مأساوية سوداء بعد أن يقتل الأخ أخاه!

إن البطل هو- معبد بن رباح - الذي استلهم سيرته المؤلف من سيرة المغني الأسطوري خلال العصر الأموي- معبد بن وهب - .وبذلك استطاع أن ينقل الحدث من العصر الأموي إلى العصر العباسي..أي من دمشق إلى بغداد!.. علما بأن الرواية قد كتبت أو صدرت بعد سقوط بغداد بيد الاحتلال الأمريكي!

فهل كان يقصد المؤلف رسالة معينة من وراء ذلك؟

في لقاء مع رشيد الضعيف في صحيفة السفير اللبنانية، أجراه معه مسئول الصفحة الثقافية الشاعر اللبناني، إسكندر حبش.. ينكر فيه المؤلف أي صلة بين بغداد الأمين والمأمون وبين بغداد الحالية!

قد يكون هذا صحيحًا..لكن يحق لنا بعد أن خرج الكتاب من أدراج المؤلف ووصل إلى الجمهور، ألا نصدق ما قاله في اللقاء الصحفي وأن ننبش في النص. إن النبش في النصوص ليس هو هدفنا في هذا الكتاب، بل ما يهم هو تكوين الشخص العراقي في داخل النص، وبما أن الخلفية المكانية هي العاصمة العراقية بغداد، وإن كانت القديمة، أولاً، وبرؤية مؤلف عربي-لبناني- ثانيًا، فهذا هو ما نرصده في كتابات الآخرين..وهنا نقتطع بعض المقاطع من سيرة هذا المغني الذي هاجر إلى بغداد.

(ولطالما سمع عن بغداد! ولطالما حلم ببغداد!

كان يتصور نفسه إلى مائدة بعض الوزراء وهم يأكلون:غلام إلى يمينهم وغلام إلى يسارهم، يتناولون ملعقة من غلام اليمين الحامل

ثلاثين ملعقة من زجاج نادر، يأكلون بها مرة واحدة فقط، ثم يـدفعونها إلى غلام اليسار، كل ملعقة لقمة، فهم من نظـافتهم لا يعيـدون الملعقـة ذاتها مرة ثانية إلى فمهم.وكـان يتصـور نفسـه ينشـد قصـيدة في عـرس الخليفة، أو عرس ابن الخليفـة، أو عـرس أحـد أبنـاء الأشراف، فتنـال قصيدته إعجاب الممدوح ، ويعطى مالاً يقيه طوال حياته مـن العـوز- ١٣، ١٤)

ويحضرني هنا بعد هذا الوصـف الخيـالي لحيـاة البغـداديين في تلـك الأزمان الغابرة صوت الشاعر العراقي بدر شاكر السياب وهـو يقـول بألم:

ما مر عام والعراق ليس فيه جوع!

إن البذخ والترف اللامعقول، هو ما أراد أن يوصـله لنـا المؤلـف في بغداد تلك العصور..فهناك الثراء الفاحش، وهذا ما لم يأت به الضعيف من الفراغ، بل هو وصف تجده في أغلب كتب التراث العربي..بـل ومـا أكثر ما قيل عن بغداد الرشيد مثلا.

(- اقتله؟

لا تقتل!قالت له.بل ارحل إلى بغـداد إن اسـتطعت، فهنـاك يغتنـي الناس من الغناء .... بغداد تلهب أحلامه-٢٨)

لكن الصورة الذهبية عن بغداد ليسـت هـي كامـل الحقيقـة.. وكـما سنرى في متن هذا العمل الأدبي.بغداد التفاهة.. بغداد العنف الـدموي

الأعمى.. بغداد الفقراء والعيارين.. بغداد ذات المزاج الحاد المتقلب.. أما تفاهة الخلفاء واستهتارهم فلها من الأخبار ما يملأ بطون الكتب التاريخية والتراثية وبلا حرج!..ففي هذه الكتب نقرأ عن حياة الجواري والنساء والغلمان الذين كانوا يحكمون من وراء عمامة الخليفة، ولا نعدم هنا أو هناك بأخبار تحدثنا عن عبقرية هذا الخليفة أو ذاك ونبوغهم، وهي أخبار تمثل ذر الرماد في العيون لموازنة أخبار التفاهة!

(وهكذا نزحت خليدة والغصة في قلبها، مع أنها كانت تحب بغداد، وتحب الإقامة فيها، بل إن هذا ما كانت تحلم به، كانت تحلم أن يشتريها سيد من هناك، حيث الحياة الراقية والعيش الهين، وحيث يفصل الجارية مثلها عن صفر الخليفة أغنية واحدة فقط، يبلغ خبرها الخليفة وتعجبه، لتصير سيدة الغناء، ومقصد عشاق الأغاني، من أرستقراطية الإمبراطورية الغنية الشاسعة، التي لا تغيب عن أطرافها الشمس - ٤٧). لكن اسم العراق وبالذات بغداد..يبقى مقرونًا دائمًا بالحروب والكوارث وهذا هو الوجه الأبرز، خصوصًا بغداد، هذه المدينة المنكوبة دائما بهجرة المتريفين والقرويين والبدو..

(أشتم رائحة الحرب تقترب:قال معبد لأبو زكار في حانة الشط.وسمعت أن كثيرا من الناس، وخاصة من الطبقات الميسورة، يرحلون خوفًا من الانفجار الكبير.قتل علي بن عيسى بن هامان:قال له أبو زكار، لم ينتشر الخبر بعد في بغداد، لكن الأمين ومعاونيه علموا به قبلي بلا شك، وعلي بن عيسى بن هامان هذا من خيرة قواد الأمين.وهو

الذي شجعه على عزل أخيه المأمون من ولاية العهد وعن خراسان، وقد جهزه الأمين بأربعين ألف رجل، وسار بهم لقتال طاهر بن الحسين، الذي أوفده المأمون على رأس جيش أقل عددا بكثير.لكنه مجهز بأحدث الأسلحة.والتقى الجيشان في منطقة الري، والتحما وانتصر جيش طاهر، ثم جيء له بجثته وقد شدت يداه ورجلاه، كما يفعل بالدواب إذا ماتت، فأمر بها طاهر فألقيت في بئر، ثم كتب بالخبر إلى خراسان ومما قال في كتابه: (..رأس علي بن عيسى بين يدي وخاتمه في أصبعي، والحمد لله رب العالمين) وكان إلى جانب المأمون حين وصلته الرسالة، مساعده الأول الفضل بن سهل الذي سلم عليه بالخلافة، فسر المأمون سرورًا لا يوصف-٦٧)

إنها القسوة الفالتة من عقالها والتي لا تحدها حدود أخلاقية أو دينية..بل الكذب والنفاق والعنف، هي المفردات التي سادت تلك العصور وتحلى بها العراقيون في تلك الأزمان، وهو التاريخ يعيد نفسه بألف صورة وصورة..

(ولم يكن معبد بن رياح قد تحقق بعد أن الأوضاع في بغداد على هذا المستوى الكارثي من الخطورة، كان يعلم فقط أن الأوضاع فيها (خطيرة) وأن هناك خلافات بين الخليفة الأمين وأخيه المأمون الذي كان حاكم خراسان في فارس، وأن الجيش الجرار الذي أرسله الأمين نحو خراسان، والذي يتحدث عنه جميع الناس، سيعيد الأمور إلى نصابها بعد أسابيع أو أيام.لكنه لم يتصور إطلاقًا أن الأمور خطيرة إلى

حد أن بغداد مهددة بالتدمير الشامل، وبعشرات الألوف من القتلى وأكثر منها بكثير من الجرحى..وما يستتبع ذلك من أوبئة ومجاعات-٦٨)

والعراقي هنا..قاتل ومقتول..جلاد وضحية..الشمس والقمر..الليل والنهار..الحر والبرد..الجنة والنار!

(وقالت له: ألا تدري أين أنت؟ أنت في بغداد عاصمة الإمبراطورية والدنيا. ماذا تقصدين؟ قال لها.قالت: أقصد أنك إذا رددت الصوت بفمك، لتسمعه أذنيك، فقد يسرقه أحد منك!هذه هي بغداد يا معبد-٩٥)

ثم حدثت المجزرة..

(ثم استطاع أحد قواد طاهر(وكان معروفا باسم داود سياه). أن يبلغ مع فرقته علي بن عيسى وأن يشتبك معه، واستطاع أن يضربه ضربة قضت عليه فوقع عن فرسه، وانكب عليه الرجال يتابعون ضربه، وتسابقوا في قطع رأسه، وكذلك في قطع أصبعه التي فيها خاتمه.واقتلع أحدهم خصلة من شعر لحيته، أما الرجل الذي ذبحه فكان يعرف بطاهر بن الراجي.ثم سلم الرأس إلى أحد وجوه القواد وهو أحمد بن هاشم، وكان قد ظن أنه قتل في المعركة، فحمله إلى طاهر. وقال له حين وصل إليه: البشرى! البشرى! جئتك برأس علي وهو مع غلامي في المخلاة، ثم طرحه أمامه، ثم أتى بجثته وقد شدت يداه ورجلاه كما يفعل بالدواب إذا ماتت، فنظر طاهر في الرأس فابتسم، لكنه ارتاب

قليلاً لأن الرأس كان مشوها بسبب الضرب عليه قبل قطعه.فاستدعى طاهر من يعرف علي بن عيسى جيدا، حتى اطمأن نهائيًا إلى أنها رأسه بالذات-٩٦)

ما أشبه اليوم بالبارحة!..نقرأ هنا بعضًا من تصرفات الأمين مع الذين خذلوه في مشروعه الطموح.. (ولما علم الأمين بهروب إسحق.سأل عمه ابن المهدي عن الأمر، ففوجئ بالسؤال، لأنه لم يكن على علم بذلك، وكان إسحق قد هرب سرًا مع أولاده وزوجاته وأمه، وخدمه وجواريه وغلمانه، وأعواده والآلات الموسيقية الأخرى التي كان يضرب عليها ويحبها، وأخذ معه أكياس عظيمة من الدنانير والدراهم والذهب والأحجار الكريمة الأخرى، والكتب التي ألفها في الموسيقى وكذلك لائحة بأسماء الأغاني التي لحنها والده، وكلماتها وطريقة تلحينها، ولم يستطع الأمين شيئًا، سوى أن أهدى بيوته التي أخلاها، إلى وجهاء العيارين، وفقراء بغداد وعامتها، ليقيموا فيها-١٠٠)

أليس هذا الذي حدث في ذلك الزمان ما زال يحدث لحد الآن في بغداد؟.. فكيف يطلب منا المؤلف أن لا نقارن بين البغدادين؟. إنها في النهاية بغداد واحدة لم تتغير، والبغداديون هم هم لم يتبدلوا!.. ألم يهرب الشعراء الذين تسابقوا في تمجيد (القائد الضرورة) صدام حسين خلال أيام حكمه، وعندما أيقنوا بغريزة الفئران بحتمية غرق السفينة، هربوا تحت جنح الظلام إلى المنافي القريبة والبعيدة، وعندما أفاق قائدهم على

هذه الخيانة بدأ بمصادرة بيوتهم التي أصلاً قد كان صادرها من معارضيه وأعدائه ومنحها إليهم كمكافآت على تهريجهم طوال عقود القهر في الزمن العراقي الحديث، وأعطاها إلى وجهاء (العيارين).. والعهر!

هنا مقطع مؤثر، يدل بوضوح فج..على مدى وكمية الأحقاد المتراكمة التي تغلي في صدور العراقيين منذ أزمان بعيدة حتى أنهم لم يعودوا يعرفون لمن يوجهون مدافع أحقادهم ولا الزمن..فتعالوا نسمع ونقرأ.. (سيضحكون عليك إذن وعلى الأمويين جميعا، وربما ظنوا أنك من مناصريهم، رغم أن أيام الأمويين انقضت من زمان، منذ عشرات السنين، وقد هدمت قصورهم وقتلوا، ومن لم يقتل منهم نفى نفسه إلى أقاصي الأرض، وادعى اسما آخر، وعمل كما يعمل الناس العاديون حتى يستطيع العيش، وقد نبشت قبورهم التي فيها دفنوا منذ عشرات السنين، وأخرج ما تبقى منهم فيها إلى النور، فأهين وأحرق وذر رماده في الهواء وماء الأنهر حتى لا يبقى منهم أثر. وكم كانت تكبر فرحة الباحثين عن بقايا الأمويين عندما كانوا يقعون على هيكل عظمي مازال متكاملاً، فيعمدون إلى صلبه وجلده قبل أن يحرقوه ليحولوه إلى ذرات زائلة من غبار كوني-١٠٦)

أليس هذا سببًا كافيًا للمؤلف لكي يختار خلفية تاريخية ومكانية مثل بغداد؟..لو افترضنا أنه أراد أن يروي سيرة المغني الأسطورة-معبد بن وهب- الذي عاش في دمشق..فأين يمكن له أن يجد خلفية مثالية مثل

بغداد؟..وزمنًا مثاليًا مثـل زمـن الأمـين والمـأمون؟..المكـان والزمـان مثاليان جدا..فبهما كمية من العنف والـدم المسـتباح، الحـار، المسـال في الشوارع، ما لا يوجد له مثيل!؟

كما لهذا السبب أيضا (العنف) لا يوجد في العراق كلـه أي قـبر لأي خليفة أو حتى رئيس جمهورية!..أليس هذا بالشيء المذهل؟

يقول رشيد الضـعيف في لقائـه الصـحفي مـع إسـكندر حـبش (لا علاقة بـين بغـداد اليـوم وبغـداد التـي أتكلـم عنهـا..).. لكـن بغـداد الحدث.. وكما أن الإنسان لا يسـتطيع أن يـتخلى عـن تاريخـه حتـى لـو شاء..كذلك المدن..فلا يمكن أن تنسى بغداد..المدينـة والـذاكرة..كـل جحافل القتلة الذين مروا بها وعبروا إليها..كذلك يقول في لقائه ..

عن كتب التراث العربي القديم(يجعلون الحيوانات تـتكلم إذا كـان بناء الخبر وسياقه يحتاجان إلى ذلك، يجعلون الشجر يتكلم، يلوون عنـق كل شيء من أجل أن يكتمل الخبر عندهم)..

تـرى هـل لـوى رشـيد الضـعيف عنـق روايتـه ليكتمـل لديـه (الخبر)..والسؤال.. أي خبر؟..هذا علمه عند أصحاب الكهنوت.

أما شخصية العراقي في.. (معبد ينجح في بغداد) .. فهي تـتلخص في كلمة واحدة.. بائس!

هاديا سعيد

صدرت الطبعة الأولى من كتاب (سنوات من الخوف العراقي..) عن دار الساقي في عام ٢٠٠٤.وفيه تؤرخ المؤلفة لسنوات حاسمة من الخوف(العراقي) المتجذر في نفسية الفرد العراقي.

إن كتاب هاديا سعيد هذا ليس بالعمل الروائي أو القصصي، لكني مع هذا وجدت فيه الكثير مما كنت أبحث عنه.. إنها حكاية البنت العربية(اللبنانية) التي كانت مؤمنة بقضايا(كبيرة) وطنها العربي الكبير.. مرت بالعراق وشاءت الصدف التاريخية أن تمر فيه، في فترة هي من الأصعب إن لم تكن الأصعب على الإطلاق وأعقد فتراته السياسية والاجتماعية، بل وأخصبها عنفًا وجنونًا: إنها الفترة التي رافقت نضوج فكرة الجبهة الوطنية وتأسيسها والتي ضمت الحزب الشيوعي العراقي والحزب الحاكم، حزب البعث العربي الاشتراكي العراقي، وفيها أصبحوا(شركاء) في السلطة أو هكذا تظاهر الاثنان!!

ما جذبني لهذا الكتاب، أن هاديا سعيد، لم تكتبه بشكل يوميات أو مذكرات مضجرة، بل كتبته بشكل هو أقرب إلى الحكاية الخفيفة،

لموضوع يحمل الكثير من الألم والعنف..هذا بالإضافة إلى أن الكتَّاب العرب ، على كثرة ترددهم إلى العراق لم يوثق سوى القليل جدًا منهم، لهذه المرحلة المهمة جدًا من تاريخ العراق الحديث وما تركته من تأثير حاد وخطير في تكوين نفسية الفرد العراقي وسكنت ذاكرته بكثير من الدموية وكالعادة بالموت المجاني!.. فلقد تقاسمتهم الثنائية الحادة للتنافر بين هذين الحزبين اللذين لعبا الدور الأساسي والمهم من تاريخ البلد الحديث فكانوا، إما مع هذا أو ضد ذاك.. وبالعكس. وسكت أغلبيتهم عن التطرف الذي حصل وغيبوا هذا الفصل الحاد الدموي، إما خوفًا وإما تحقيقًا لمصالح فردية.

فكما المؤلفة التي لم تستطع التخلص من بقايا خوفها إلا بعد أن شاهدت بأم عينيها كما شاهد العالم أجمع، سقوط صنم الطاغية على يد المحتلين الأمريكان!.. عندها فقط قررت نشر هذه اليوميات المهمة، والتي من الممكن جدا أنها قد كتبت قبل السقوط بزمن طويل، والذي أخر نشرها هو الخوف العراقي.

في البداية تصف السعيد، مسألة الهرب الكبير، وتصف ما حدث بعد انهيار الجبهة الوطنية(كالزلزال الخفي)..إذ تقول (نعم، ينبغي القول أننا هربنا من العراق، هربنا من بغداد الجميلة التي كانت تهتز بآثار زلزال خفي في أواخر عام ١٩٧٨ وعندما أقول هربنا، فأنا أعني نحن:ذلك الخليط العجيب، المتقارب والمتناقض في آن واحد من الكتاب والصحفيين والمثقفين، مستقلين وشيوعيين وأنصار الشيوعيين

وأكرادًا من بصمت أوراقهم الشخصية بعبارة (تبعية إيرانية) وعرفوا في بغداد باسم الأكراد الفيلية، وآخرين استشعروا الظلم خطرًا قادمًا بشكل أو آخر-١٧)..

هل كان المسئولون عن السلطة (البعثيين) هم وحدهم من يتحمل المسؤولية الكاملة؟.. أم أن الهروب الجماعي الذي مارسه المثقفون، كان أيضًا خطأً قاتلاً، مهدوا به الطريق للبعثيين ليحكموا قبضتهم على البلد لسنوات عجاف طوال انتهت بتدميره عبر الحروب والحصار وأخيرًا الاحتلال؟.. ألم يكن الشيوعيون يتباهون بأنهم يملكون الشارع كذبًا! وهم الذين تركوا لحفنة من الأفاقين البعثيين اقتلاع السلطة عام ١٩٦٣ من حليفهم عبد الكريم قاسم، والسماح لإقامة الموسم الكبير لاصطياد الشيوعيين وقتلهم؟.. ترى أين الحقيقة وسط هذا الكم الكبير من الأكاذيب والمبالغات الحزبية الضيقة والعنف المتبادل بين الطرفين!

هنا في هذا المقطع، تصف الكاتبة، حادثة حقيقية عاشتها ومارستها مع زوجها، أي الهروب من المواجهة، والفرار المذعور.. وهي تصف بشيء من السخرية اللاذعة، هرب هؤلاء المثقفين الثوريين، واستيقاظ حاسة الفئران المذعورة فيهم التي تتنبأ بالزلزال قبيل وقوعه..إذ تقول (في تلك الفترة في بداية ومنتصف عام ١٩٧٨ تنبهت إلى أساليب الهروب:إجازات مرضية، إجازات بدون راتب، توسط للحصول على منحة دراسية في الخارج، سفر طارئ أو مفاجئ بسبب وفاة أو زفاف!كذب بريء أو مفضوح، حتى طارق عزيز عندما كان وزيرًا

للإعلام في تلك الفترة، وسئل في لقاءات صحفية عن أرتال المثقفين العراقيين الذين غادروا أو هربوا من العراق بعد بداية حركة التبعيث التي مزقت أخر فتات من حلم الجبهة الوطنية، قال"هؤلاء خرجوا بأنفسهم، لم يطردهم أحد، ولم يغضبهم أحد، هم اختاروا ترك جنة الوطن، فليخسروا إذن نعيم التمتع بالانتماء إليه"-١٨)..

هذا هو منطق الأحزاب القبيح.. إن الانتماء الذي تحدث عنه طارق عزيز، هو انتماء الأحزاب وليس انتماء الوطن.. فالوطن بعرفهم لا يكون صالحًا للعيش فيه إذا كان الشيوعيون على رأس السلطة فيه وبالتالي تحوله إلى جحيم بالنسبة إلى الآخرين، وكما حدث عندما اقتربوا من السلطة في زمن عبد الكريم قاسم، فلقد أقاموا الجحيم للآخرين(كما في أحداث قطار السلام مثلاً)..وعلى العكس من ذلك تمامًا، عندما تمكن البعثيون من الاستيلاء على السلطة في العراق، أصبح البلد جنة، والانتماء إليه فضيلة لا تنازعها أي فضيلة أخرى في العالم، كما أصبح جحيمًا للشيوعيين والمتعاطفين معهم وبدأت (أرتال المثقفين العراقيين) بالهروب!

لكنهم نسوا أنهم في النهاية عراقيون-البعثيون والشيوعيون- في خضم صراعهم الضيق على السلطة أضاعوا الهوية الوطنية العامة وأغرقوا البلد في بحر من الدماء والأحقاد والكراهية..وهذا يعود بنا إلى طرح سؤال يبدو في ظاهره طبيعيًا..لماذا كان أحدهما لا يطيق وجود الآخر ويسعى بكل قواه لدماره وإلغائه؟..

هل يمكن تفسير هذه المواقف العدوانية بين الطرفين بإيعازها إلى تجذر ظاهرة العنف في نفسية الفرد العراقي؟..أم أن الفترة القصيرة التي تلت موجة عنف ١٩٦٣ والتي اعتقد أغلب العراقيين البسطاء أن سماء التسامح قد ظللت رؤوس المتحزبين منهم- شيوعيين وبعثيين- كانت زائفة وكما توصف في المثال الشعبي (مطر صيف) وظاهرة غريبة على العراقيين؟

(منذ عام ١٩٧٠ وما تلاها من سنوات قليلة شهدت الأيام، مشاهد تشبه الأحلام، تتكوم لتكريس حلم قيام جبهة وطنية تجمع لأول مرة في تاريخ العراق الحديث حزب البعث والحزب الشيوعي، وفي تلك الفترة نفض الشيوعيون عن ملابسهم دماء الماضي وتناسوا أيام التقاتل والاعتقال، واقترب البعثيون بوهم حب الوطن والمصالحة الوطنية القومية، فنشطت دعوة الجميع للتهليل لهذا الحلم أو الوهم-١٩).. إذ وحسبما جرت وقائع التاريخ بعد هذه الفترة-الحلمية الوهمية- اكتشفنا أن هذه الفترة، هي فترة إعداد لمرحلة العنف القادم التي اجتاحت البلد وتركت الكثير من جثث أبنائه ملقاة على رصيف الطريق القديم، ولكن هذه المرة باسم الأيديولوجيا الحزبية!

غريب كيف يبدل العراقيون عناوين اقتتالهم مع أن الهدف واحد وقديم!

لا شك أن هناك من حاول جديًا، من الطرفين، أن يبدأ فعلاً مرحلة تآخٍ وطني، غريب على ثقافة العنف السائدة في تاريخ العراق القديم منه

والحديث، لكن في النهاية لم يشهد هذه المحاولة أي نجاح، وكما لاحظت هاديا سعيد ونقلت لنا من أجواء تلك الأيام المشحونة برائحة الدم والعاصفة.. (كان الإيقاع العام لكل ذلك منفتحًا، علمانيًا، يحاول أن يكون جريئا، وكان هناك حالمون كثيرون يؤكدون وهم هذه الرفقة الجديدة، وكنت ألحظ ابتسامات الجانبين البريئة والمترفعة أو الملغومة، أرى الجميع في أروقة مؤتمرات وحفلات اتحاد الأدباء وجمعية التشكيليين، أحاول أن أستشف ذلك الضغط النفسي الخفي الذي يحاول كل لحظة أن يبعد شبح ماضٍ ملوث بالدماء-٢١)... وكما قلنا في النهاية، وكالعادة، انتصر المتمسكون بأبجدية العنف وسحقوا أول من سحقوا هؤلاء(الحالمين) من الطرفين فالوضع العام لم يكن ليخرج عن جملة قالتها.. (بؤرة من ألغام سياسية وأكوام من الدماء-٢٢)... لقد حاول الشيوعيون أو عموم المتضررين من قيادة حزب البعث وحكمه للبلد، وخصوصًا منهم المثقفون، أن يحملوا الكثير من المواقف العامة أو الشخصية لهذا الفرد أو ذاك، أكثر بكثير مما تحتمل، وذلك لإضفاء شرعية المقاومة للنظام الفاشي ولو إسميًا أو سلبيًا..البعث هو الذي كان يحكم ، أي أن موارد البلد بيده، وعليه فإنه كان ينفق الكثير على الأساليب الدعائية ومحاولاته المستمرة لكسب الرأيين العراقي والعربي، وهذا شيء مفهوم من منطلق الأحزاب التولتارية والدكتاتورية، وهذا ما كان الشيوعيين يعيبونه عليهم..لكن السؤال، لو كان الوضع عكس الصورة التي كانت، وكانوا هم الذين يقودون

البلد، وبيدهم موارده، ألم يكونوا ليفعلوا نفس الشيء؟..الجواب القاطع هو بالتأكيد، لكن هناك دائمًا من سيقولون عكس ذلك ويدعون المبدئية!..الم تكن كل الأحزاب الشيوعية التي كانت حاكمة في الكتلة الشرقية السابقة بقيادة الاتحاد السوفيتي وانتهاءً بكوبا وكوريا الشمالية، تفعل نفس ما فعله البعث ذات مرة؟..

بل إن هاديا سعيد، باعتبارها غير عراقية-لبنانية- تنقل لنا عما شاهدته من (حسد) لدى المثقف العراقي من زميله العربي العامل في العراق، فعندما كانت الكاتبة تتولى مسؤولية أحد الأقسام في مجلة(ألف باء) حدث كما يوشي الكلام، خلاف بينها وبين أحد المحررين.. إذ قال لها (نزل وتدبيج على السطح-٢٣) وهو مثل شعبي عراقي، معناه، بالرغم من كونك غريبة -غير عراقية- إلا أنك تفعلين كذا وكذا.. وهي تدافع عن نفسها بالقول.. (لكني من جانب آخر، وكما يراني آخرون، كنت ضيفة معقولة، لا أحصل إلا على راتبي، عكس الكثيرين من المثقفين والكتَّاب والفنانين العرب الذين جاءوا ضيوفًا أو متملقين أو كسابين كما تقول الهمسات في كواليس مبنى الدار أو سهرات النوادي وبارات ومطاعم باب الشرقي-مركز بغداد-٢٣).. وفي مكان آخر.. (ومنذ أن تحول المربد إلى شعر يتغنى بالقائد والقيادة، أصبحنا نسمع عن هدايا الساعات والمغلفات التي توضع في غرف الفنادق، والدعوات الخاصة لزيارة القصر الجمهوري، وكان على الجوقة العازفة أن تكتب عنهم، وتجري لهم الحوارات، فيتم العزف، ثم تضج في

الكواليس الهمسات: يقبضون أكثر من العراقيين، يكرمون، لا يأتون حسب الكفاءة والخبرة-٢٦).. ماذا تريد أن تقول؟.. هل أن العراقي عنصري؟.. ويشعر بالغيرة والغضب إذا جاء (آخر) عربي وحل محله؟..لماذا لم يحدث هذا في بيروت، قبيل وحتى بعد الحرب الأهلية، عندما استوعبت الجميع على اختلاف عقائدهم، في حالة مدهشة، أثارت مواقع الظلام العربية فتآمروا على إغراق هذه الحالة في ظلام مشابه!.. وهل هذا يعني أن المثقف العراقي، إذا أكرم من قبل القيادة ودفع له ما يناسب حجم (موهبته)، يتحول إلى بوق إعلامي للحزب الحاكم، أيًا كان هذا الحزب!..وهذا ما حدث وشاهدناه وعاصرناه، والساحة الثقافية العراقية شهدت بكثافة غير عادية تساقط الأسماء اللامعة التي (عاد إليها الوعي)وتنصلت من تاريخها النضالي مع الحزب الشيوعي وبالتالي تحولوا إلى أرقام في طابور المزمرين والقابضين الطويل!

إن العراقي(غشيم) يمكن أن يضحك عليه بسهولة!.. حتى مثقفيه.. أليس هذا ما تخبرنا به المؤلفة في الفقرة التالية من كتابها.. (المحافظون والتقليديون كانوا يحسبون أنهم من جماعة (الأب القائد-أحمد حسن البكر) لم يكن لهم بريق أو حماسة. أما جماعة (السيد النائب-صدام حسين) فهم الشباب، ومن فلقتي الجبهة، أي نحن المجددون الذين بدؤوا يرون في صدام حسين الشخصية اليسارية التي ستجفف عفونة البعث وتعصرنه، هو ترو تسكي جديد وكاسترو العراق، كما

تـراه الأمنيـات التـي تختلط بالأوهـام-٢٨).. إذًا، حتـى الشـيوعيون وأصدقاؤهم كانوا يرنون بعيون الحب واللهفة إلى -السيد النائـب-!.. (ألم يغن الشيوعيون نشيد الأممية ويصفق صدام ويعانق الرفـاق الكبـار في حفل ضمهم بقاعة الاحتفالات بقصر المؤتمرات(قاعة الخلـد)؟.. في ذلك الاحتفال ، كان صديقنا الشـاعر الراحـل رشـدي العامـل الـذي أمضى سنوات الاعتقال الطويلة في سجن قصر النهاية يثمل بين أيـدينا، حتى حملناه إلى بيته الذي يجاور بيتنا.محتفلاً ببكاء غريب، مصفقًا ومغنيًا لمن اضطهده وعذبه، ثم ضحك عليه وهـم مـن جديـد لإعـادة تـاريخ التعذيب والاعتقال لأبنائه بعد انتهاء العرس وظهور الأنياب-٢٩)

إذا كان المثقـف الأيـديولوجي، الـذي مـن (المفـروض) أنـه يقـود شعبه.. (غشيمًا) وانخدع بسهولة، برقة ولطافة -السيد النائب- فكيف حال المواطن البسيط الذي وضع ثقتـه بأنـاس عـلى هـذه الشـاكلة مـن السـذاجة! والـذي وقـف عاريًـا بـين مطرقـة البعـث وسـندان الشيوعية!..(ظن البعض مـن الشـيوعيين أن بإمكـانهم جـذب السـيد النائب إلى معسكرهم بما يتحلى به من شباب وتطلع"اشـتراكي" جديـد يتجاوز حدود القومية العربيـة المـؤطرة ببيـان القائـد المؤسـس ميشـيل عفلق. ولعل السيد النائب بدوره كان يخطط بسـرية-كـما عرفنـا عنـه- لاستيعابهم ودمجهم في معسكره (كما فعل فيما بعـد مـع بعـض الأسـماء اللامعة من الكتَّاب والفنانين الذين حسـبوا طـويلاً في لائحـة الرفـاق الشيوعيين أو الماركسيين بوجه عام)-٣١).

دخل الطرفان إلى وهم لعبة الاستغفال والاستحمار وجرا البلد وراءهما إلى الهلاك، مع أن كليهما يعرف تمامـًا، أن الساحة العراقية لا تسع كليهما، وأن على أحد اللاعبين الاعتزال وإخلاء الساحة ولو بالقوة، فهم محكومون بقوانين اللعبة الأكبر.. لعبة دورات العنف العراقية. الشيوعيون لم يؤخذوا على حين غرة كما يحلو للبعض منهم أن يتحدث ويصور، أن الإعداد للمعركة كان واضحـًا وسريعـًا، وعملية الاستقطاب الحاد والسريع، قد بدأت منذ لحظة تأسيس ما عرف بالجبهة الوطنية.. كلاهما كان بحاجة إلى الوقت لينزل إلى ساحة المعركة المتجددة بينهما.. كلاهما كان يعرف أن فترة الجبهة كانت فترة هدنة وليست نقاهة في نهاية الجولة وكما جرت الأحداث في العراق فاز البعثيون بهذه المعركة وطبعـًا وحسب التقليد العراقي الراسخ تحولت إلى مذبحة.وأثبت البعثيون أنهم الأكفأ في لعبة الدم.. (أن من حلم بعراق يتجدد ويتطور بدأ يواجه بأحداث وتحولات تحيره أو تفاجئه أو تفرض عليه السكوت أو الابتعاد.أصبحت الساحة تشبه حلبة تدريب وإعداد لفريق كرة قدم، سيخوضان المباراة الأخيرة في السنوات التالية، بل ستكون تصفية نهائية، تبدأ بالرؤوس الكبيرة وتنتهي بأصغر اللاعبين الذين لم يكونوا غير جيل حالم جديد لم يستوعب درس من سبقه. أو أن مد الموج الصاخب لم تترك له فرصة لاستيعاب الدرس وهضمه واستخلاص العبر-٣٠).

ثم تصف هاديا سعيد الجو السياسي العام بدقة عندما تقول..

(السياسة الآن، لم تعد لعبة أحزاب أو واقع قوى أو أدوات وأسلوب تختار منه فرق تسعى إلى الحكم أو تتولاه، ما يناسبها، بل هي ضحية صغيرة ضيقة تفرض عليك الانحناء لدخوله، ثم تحشرك لتظللك وترفع فوق رأسك ظل سوط يلاحقك في صحوك ونومك، فتهرب منها حتى تدمن الهروب-٣٣).. إنها بلا شك تصف بدقة دوامة العنف القادمة..وإدمان(ممارسة) الهروب الذي لا يعني بالضرورة ...النجاة!

ثم يصل الخلاف السياسي بين العراقيين حدًا كما تراه هاديا سعيد، يكاد يصل إلى محل كل ما هو جميل وأصيل في حياتنا القصيرة، وكيف أن السياسي دائمًا كان متقدما على كل ما هو غيره، وخصوصًا الثقافي في حياتنا.. (يظل العراقيون في اعتقادي أبطال المكر النبيل في الدفاع عن ثقافتهم وإبداعهم، ولم أر شعبًا أكثر قراءة وتعلقًا بالأدب والفكر كالعراقيين، إن مرجعيتهم هي الورق والكتب وليست الحياة، وأبطالهم شخصيات روائية وقصائد شعر وشجن غناء شعبي، أكثر منها أشخاصًا من لحم ودم أو تجارب مغمسة بالواقع ، فالواقع أكثر من مر، والسياسية تؤطر الاسم قبل النتاج، فمثلاً إذا حدث إجماع (محلي) لأسماء كالجواهري والسياب أو البياتي ونازك الملائكة ومظفر النواب، فإن السياسية تنشب أظفارها لتخدش انتماء كل فرد من هؤلاء، وقد تتكون فرق المنقضين بسرعة مذهلة تواجهها فرق المدافعين لتختلط النظرة السياسية بالإبداعية بالفكرية، وتطلق أحكامًا قد تصل إلى الحكم بالإعدام(المعنوي)-٣٧)

المعروف أن النظام السياسي العراقي قد سحب الجنسية العراقية من اثنين من أهم شعرائه(الجواهري والبياتي)، لأنهما كانا من المعارضين للنظام السياسي وشاركا في مهرجان (الجنادرية) في المملكة العربية السعودية!

إن إلغاء الآخر في العراق أسهل بكثير من النقاش والحوار والاختلاف الحضاري معه!..في مكان آخر من حكايتها مع الخوف العراقي، تنقل لنا صورة افتتان السياسي العراقي بالدم، وبأن يرى نفسه معمدًا بالدم في سبيل قضية! وهي آخر صورة(مقدسة) يمكن أن يرتقي إليها العراقي السياسي وحتى يقبله مواطنوه الذين يعشقون رؤية أبطالهم وهم معذبون والدماء تسيل منهم كما المسيح على الصليب!.. وهذا مؤشر على تقديس الدم، سواء كان على يد الجلاد أو جسد الضحية.. (في تلك الأيام -أيام الجبهة الوطنية- فكانت كأنها قيادة مشروخة.كل التفاصيل مغلفة بازدواجية. (الرفاق الشيوعيون) يبدوا أنهم تآلفوا مع العمل تحت الأرض، فقد ظلت نزعة التوجس والحنين إلى ذكريات الدم والتعذيب والتنكيل، كأنها قياس للبطولات وإثبات الذات، بينما بدا (الرفاق البعثيون) وكأنهم يتفضلون بقبول زملاء وأعضاء جدد في النادي القومي-٦٥).. إن تبادل الأدوار المحكم بين الظالم والمظلوم، بين السادي والمازوخي، السالب والموجب، ثنائية تفتن العقل السياسي العراقي لحد التطرف..الكل متربص بالكل..يتم ذلك بالطبع تحت يافطة اسم الوطن!..الذي هو عادة في الحقيقة غائم

وغامض ومبهم وغير محدد المعالم في ذهنية العراقي، الموزعة بين الولاءات العرقية والدينية والمذهبية. نقطة أخرى مهمة جدًا وثقتها عين الصحفية الممتازة في الشخصية العراقية بعد أن انتقل هذا(المرض) إليها نفسها وهي الغريبة!..إذ أنها تصف محادثة جرت بينها وبين طارق عزيز..(كنت أشعر بالارتباك والخوف.......

كان كأنه يحادث إنسانة أخرى، فقد كانت الطفلة في داخلي مازالت مصعوقة بخوف غريب، ذلك الخوف الذي بدا يفهمني ويعلمني معنى أن تكون في العراق، ومعنى وعمق العذاب والهلع الذي يعيشه أحبائي العراقيون-٦٧).. (فلم تكن جولات وجلسات الإنتاجية إلا تفعيلة في مقدمة بناء (جمهورية الخوف) وسيظل خوفي مثل طفل مدلل أمام الهلع العراقي)..(غير أن المعقول يبدو وكأنه المستحيل في ذلك البلد المطعون.وفي ذلك الزمن الصعب، فكيف يمكن أن تكون حياتك عادية ومعقولة وفي كل بيت حكاية قتل أو تهديد أو اعتقال أو هروب؟..

لقد كنت أحد الذين عاشوا نوعًا (مخففًا) من الخوف داخل الجمهورية وخارجها، مع أنني لست عراقية، فهل هو الشعار الخفي بأنها أمة عربية واحدة في الخوف والقهر؟.. لقد عشت في أكثر من بلد عربي وعرفت ووعيت معنى الحدود والرقابة والتضييق، لكن عهود العراق دموية وفجة ومريعة، فليس هناك بلد عاش كل من فيه خراب النفس والذرية والإرث كما عاشته بيوت بغداد، وليس هناك بلد أبيحت فيه كميات من الدماء وعدد من الرقاب والأوصال المقطوعة

كما حدث في العراق، وليس هناك بلد عرف قهر الخوف وذل الصمت مثل العراق-٦٨)..

كيف تسلل الخوف إلى كل بيت كما تقول (قتل أو تهديد أو اعتقال أو هروب!)نحن أيضا نتساءل معها؟.. كيف سمح العراقيون إلى كل هذا الكم المرعب من الخوف أن يتسلل إلى بيوتهم ويعاشرهم كما أرواحهم ويسكن في عقولهم دون أي فعل مقاومة؟.. بل إنهم استسلموا كما النعاج إلى سكين الجلاد!..أين ذهبت طلائع الأحزاب المعارضة؟..أين كان ينام رجال الدين الذين انبثقوا كما نبات الفطر في الغابات بعد الاحتلال الأمريكي وتناثرت الفتوى وبدأنا نسمع أسماء لو عدد نصفها في ذلك الزمن الأسود لما حدث الذي حدث!.. لماذا تفوقنا في تخزين كميات الخوف والدم والتفاصيل المرعبة في الذاكرة الجمعية للبلد على بقية(أقراننا) في الدول العربية؟.. لماذا تجرعنا(ذل الصمت)حتى الثمالة و(قهر الخوف)بسلبية منقطعة النظير؟

أعتقد أن سبب نجاح سلطة الخراب البعثي في إذلال العراق كله، لأنهم في النهاية عراقيون ويعرفون تمامًا من أين تضرب الكتف وتقطع الرقبة. وتتساءل الكاتبة اللبنانية عن جذور خوفها.. (متى عرفت هذه الكلمة بطبعتها العراقية؟..متى احتلت وسكنت أعماقي؟-٧٣)..أنا أعتقد أنه كان منذ اليوم الأول لدخولها العراق، وقبولها الزواج بعراقي.. أعتقد!

حتى في أعتى حالات الهذيان عند العراقي-وهنا نخص منهم

المثقفين الشيوعيين وعموم اليسار والمستقلين المتعاطفين معهم، لأن هاديا سعيد تزوجت أحدهم وحسبت عليهم، بل إنها انتمت إلى الحزب الشيوعي ولو لفترة قصيرة-لم يستطع ذلك العراقي أن يتخلص من خوفه.. من جبنه.. (لقد اكتشفت أن العراقي يعرف كيف يتشبث بقناعه، ولم يكن هذا القناع يسقط أو يزاح إلا عندما تتوالى كؤوس الشراب ويتصالح الداخل مع الخارج، فيعبر الخوف عن حضوره ويتجلى بعراك أو سخرية عنيفة أو غناء أو شتائم يمكنها أن توجه حتى للآلهة، لكنها لا تستطيع لحظة واحدة-وبشكل مباشر وصريح- أن توجه إلى الحاكم أو القيادة-٧٥)..

حتى للحظة واحدة معينة ومعروفة، تتوقف جيوش السكر الزاحفة في الدماء والعقول.. عندما تصل إلى رؤية الضوء الأحمر الباهت المرعب.. الحاكم!.. عندها تشل الألسنة وتتهدل الوجوه وتنكس النظرات وترتخي الأكتاف.. يرتعدون في (ذل الصمت) الجدير بهم!.. مرة أخرى تضع هاديا سعيد أصبعها على موضع مؤلم وتضغط عليه، عندما تتهم الجميع بانعدام الضمير، ليس السياسيون العراقيون وحدهم، بل أكثر الناس.. العاديين منهم.. (أصبحت بعدئذ أفكر بهؤلاء الذين يصبحون حرسًا ورجال أمن صغارًا أو كتَّاب تقارير، من هم؟..وكيف يصلون إلى هذه الدوائر؟..ماذا يريدون؟كيف يشعرون؟كيف يفكرون؟ هل يكفي راتب مغرٍ لتعمى العين عن تعذيب بريء أو اتهام مظلوم؟ كيف يتكون الضمير لدى أمثال هؤلاء؟

وكيف يتقزم ويضمحل؟ هل الدولة فقط هي المسئولة؟-٩٦).. نعم، أنا أحمل نفس التساؤلات المحيرة..هل الدولة هي وحدها المسئولة عن كل هذا الانحطاط؟ ألم يكن كل هؤلاء-ضحايا وجلادين-عراقيين في النهاية؟.. لماذا هذه القسوة غير المنطقية على بعضهم البعض؟

بدون تعليق أنقل هذه الفقرة..(رأيت العراق يتحول إلى علبة ضيقة تعج بحركة صاخبة لكنها صامتة، هناك ما يشبه الحراس الأشباح يقفون أمام كل باب، تمتد ظلالهم إلى كل غرفة وزاوية. تحصي النظرات والأنفاس، قبل أن تترجم الكلمات إلى معانٍ خطيرة ومهددة-١١٥).. ثم تقول المؤلفة شهادة في المرأة العراقية غير السياسية.. (اكتشفت في هذه المرأة، الصلابة والعناد والثقافة، وكذلك المقاومة بشتى السبل، وبأسلوب يختلف تمامًا عن أسلوب الرجل، اكتشفت ضمها للجروح، سواء جروح الذات أو الأهل أو الأحباء من الرجال، آباء وأزوجًا وإخوة وعشاقًا، اكتشفت تمسكها بخزين الكبرياء، وهي سمة وسمت العراقيين عموما، كأن أم العراق الأولى أرضعتهم هذا العناد والكبرياء-١٣٥).. في مرحلة من مراحل حكم حزب البعث، رفع شعار سياسي حزبي (أول من يضحي وآخر من يستفيد) وكانوا يعنون به البعثي (الجيد) وهذا كذب وافتراء، لكني أجد أن هذا الشعار ينطبق بشكل كبير على المرأة العراقية.

أخيرًا وصلت الكاتبة إلى القناعة الجوهرية.. (فكي تكون عراقيا، فإن أمامك صراطين: إما (معنا)، (أو ضدنا). الحياد كلمة ممنوعة، بل هي تهمة-٢٥٩)..

إنها ثنائية الاستقطاب الحاد في قاموس العراق والعراقيين. في ختام الحكاية -المذكرات- الصادقة والجميلة، أنقل إليكم هذه الفقرة المعبرة.. (ذكرت، وما أزال أكرر أن خوفي ظل طفلاً مدللا أمام خوف الأصدقاء والأحبة. ففي كل بيت ماضٍ يحمل توقيع هارب أو قتيل أو سجين. واليوم، عندما أقرأ وأرى فظائع المقابر الجماعية وتروى أمامي حكايات الاعتقال الرهيبة، أشعر أن الزمن لا يعيد نفسه، بل كأنه أصبح مثل ثور هائج، انطلق منذ الستينيات ولم يكفه نصف قرن أو أكثر، بل ناطح بقرنيه الألفية الثالثة-٧٩)

ولعل التساؤل الأكثر رعباً.. هو.. هل من الممكن أن تصل قرنا الثور العراقي الهائج، إلى أبعد من بدايات الألفية الثالثة؟

أحلام مستغانمي

استوقفني الكتابان الثاني(فوضى الحواس، الصادر عن دار الآداب، الطبعة التاسعة ١٩٩٩) والثالث (عابر سرير، عن منشورات أحلام مستغانمي الطبعة الثانية، ٢٠٠٣) من ثلاثيتها (ذاكرة الجسد).

فمنذ البدء وبوضوح تام، تحمل الكاتبة الجزائرية، نظام البعث الحاكم في العراق وبالتالي العراقيين بصورة غير مباشرة، مسؤولية كل الكوارث التي أطبقت على النظام العربي، بكل تنوعاته!..ربما وللوهلة الأولى يبدو ما تقوله صحيحًا نوعًا ما..أو أكثر..لكن السؤال..هل هذه هي كل الحقيقة؟

الصحيح أيضًا أنها لم تختر نموذجًا عراقيًا -حيًا- في عملها الجميل (ذاكرة الجسد) بأجزائه الثلاثة، إلا أنها تكاد لا تفوت فرصة عندما تريد توجيه سهام النقد الجارح للنظام العربي الشمولي والفاشل، ثقافيًا وسياسيًا وحضاريًا، من إحلال العراق بموقع سلبي تمامًا، ولا فرق هنا بين العراقيين ونظامهم الحاكم!

(ألهذا لم يعد؟.. أم ترى لأنه ذهب ليدفن أباه بنوايا انتحارية في

ذلك البلد الـذي يقتل الشعراء، ويكثر من المهرجانات الشـعرية-٣٥، فـوضى الحـواس).. إن السـؤال المخيـف المختبـئ بـين ثنايـا هــذه السطور..هو لمـن كانـت تقـام هـذه المهرجانـات الشـعرية ومـن كـان ضيوفها؟.. وإذا ما كان النظام يقتل شعراءه، وهذا صحيح، فمـن هـم الشعراء المدعوون، ولمن كـانوا يلقـون معلقـاتهم؟.. بـالطبع مـن غـير المجدي هنا الدخول في جدلية عقيمة..لكن الخلل كـان كبـيرًا، ونحـن بدورنا نسأل، لماذا لم ترتفع أصوات المثقفين العرب عندما كان إخوانهم العراقيون يقادون إلى الموت المبرمج في لوائح الحزب القومي الفاشي ولم ينتصروا إليه؟.. خصوصًـا في أوج قـوة النظـام إبـان الحـرب العراقيـة الإيرانية؟.. إن الإجابة عن ما تحمله هـذه السـطور القليلـة مـن معـانٍ مرعبة، تقودنا حتما إلى الوصول إلى قاع الفشل المدوي للمشروع الثقافي العربي من المحيط إلى الخليج كما يقولون!

نبدأ الآن بعد أن تحول العراقي وليس النظام الـذي يحكمـه، إلى مـا يثير الشفقة بأقصى درجاتها.. (لقد قلت لها- إلى أمه- إن أجرها سيكون أعظم لو تصدقت بثمن حجتها إلى فقراء العراق ولكنهـا لم تصـدقني-١٢٨، فوضى الحواس)..

(هؤلاء الذين تكتبين من أجلهم.. أنهم ينتظرون أن يتصدق عليهم الناس بالرغيف وبالأدوية...ولا يملكون ثمن كتـاب..أمـا الآخـرون فماتوا..حتى الأحياء منهم ماتوا..فاصمتي حزنًا عليهم-١٢٩، فـوضى الحواس).. (كنت أرى القنوات الأمريكية، تتسابق لنقل مشاهد "حية"

عن موت جيش عربي يمشي رجاله جياعًا في الصحارى، يسقطون على مدى عشرات الكيلومترات كالذباب في خنادق الذل، مرشوشين بقنابل الموت العبثي، دون أن يدروا لماذا يحدث لهم هذا-١٣٥، فوضى الحواس)

عن أي عراقي تتحدث هذه الكاتبة؟..عن ذاك الذي يستحق أن يتبرع له بمال الحجة لأنها أكثر إحسانًا من الحجة نفسها، والذي يبحث عمن يتبرع له بالدواء والكتاب..أم العراقي الجندي الذي انهزم بذل وانكسار أمام جحافل القوات الأجنبية؟..أليسوا هم في النهاية واحدًا؟.. على من تعلن فجيعتها..على العراقي أم على الجيش العربي الذي انهزم؟..مرة تعلن عن شفقتها عليه ورغبتها في مساعدته على محنته، ومرة تعلن عن غضبها عليه لأنه انهزم أمام الآخر الذي شاهدته على (القنوات الأمريكية): هل العراقي هنا ضحية أم جلاد؟..

(حتى الأحياء منهم ماتوا).. هل هي إدانة لأنهم استسلموا إلى الأمريكان أم إلى النظام العراقي نفسه؟.. لا أعرف.. المهم أن العراقي قد تحول بسرعة من جلاد إلى ضحية إلى العدم.. إلى لا شيء.. الموت المعنوي ولقد كان كذلك!..حتى تساقطهم العبثي(كالذباب في خنادق الذل) تصوير فيه الكثير من القسوة، لكنه ملائم لدخول الحرب العبثية للنظام وملائم لأنه انهزم فيها!.. إنه في الحالتين يستحق الإدانة!!

(ناصر لم يشف بعد من حرب الخليج.عند بدء الاجتياح العراقي كان يعيش مشتتا..مضطربا..ينام وهو من أنصار صدام حسين،

ويستيقظ وهو يدافع عن الكويت..ثم ما كادت الأحداث تأخذ منحى المواجهة العسكرية والتحالف العالمي ضد العراق، حتى انحاز نهائيًا إلى العراق مأخوذًا ب"أم المعارك"١٢٨، فوضى الحواس).. هنا تشبه الفعل العراقي- الاجتياح- بالحمى المرضية التي أصابت المواطن العربي، وإحساسه بالعجز التام والشلل الفكري في معالجة مشكلة العراقي الجامح، الذي اجتاح دولة صغيرة، ثم شعوره بالغضب من جراء التحالف الدولي الذي قادته أمريكا، والذي تولى إنهاء المهمة التي عجزوا عن حلها بنجاح تاقوا إليه لكنهم لم يملكوا أيًا من مقومات نجاحه. لقد فقدت البوصلة العربية تماما صوابها بفعل العبث(العراقي) بها.. الشباب العربي المحبط من الوضع العربي العام المنهار، يمثل بشخصية (ناصر) والاسم ذو دلالة لا تخفى، والذي كان ينام على طيف ويصحو على آخر، إلى أن تنتهي به الأزمة إلى وضع نفسه تحت تصرف الأصوليين الإسلاميين وانتمائه النهائي إليهم.. وينتقل العراق برمته (قادة وشعبًا) إلى موقع الضحية بفنتازيات لا يقدر عليها سوى العرب!.. فبعد أن يبدأ الهجوم لدول التحالف بقيادة أمريكا ينحاز شباب العرب إلى معسكر العراق في تأييد شبه مطلق، خصوصًا خارج دول الخليج، ومن منطلق قبائلي شهير (أنا وابن عمي على الغريب)!..

(كان مثل الجميع يراهن على المستحيل، ويحلم بمعركة كبرى.. نحرر بها فلسطين! ولكنه عند سقوط أول صواريخ عراقية على إسرائيل ووقوعها على أرض قاحلة، طلبني ليلاً ليقول لي "أهذا هو السكود

الذي كان يهدد به صدام العالم.. إنه ليس أكثر من "تحميلة" وضعتها إسرائيل في مؤخرتها-١٢٨، فوضى الحواس).. كان لفشل الصواريخ العراقية في أداء مهمتها التدميرية الدموية ومن منظر الجيش العراقي المنكسر والمتساقط"كالذباب" في رأي الكاتبة، وهي لا تجانب الصواب هنا، بحدوث تحول كبير في عقلية الشباب العربي. .فانهيار الأكذوبة الكبرى التي روج لها النظام العراقي وبمساعدة (النخبة) المثقفة في العالم العربي، والتي أوهمت الجماهير بعد هزيمة (العدو الفارسي) في حرب الثماني سنوات، والتي كان العراقي هو ضحيتها الأولى والأخيرة، بالانتقام من إسرائيل بالأسلحة النووية، بعد أن مرغت إسرائيل كرامتهم بالأرض!..فهي تقول عن أخيها (كان مثل الجميع يراهن على المستحيل) والمستحيل هنا يتحمل العراقي عبئه وحده أيضًا وأيضًا!.. وليكتفوا هم بمراقبة "أم المعارك" من على "القنوات الأمريكية"!.. هنا يتحمل العراقي الجلد مرتين:أولاً لكذبه على العرب ووعدهم بأشياء لم تحصل، وثانية لأنه انهار أمام أكبر آلة عسكرية عرفها العالم حتى هذا الوقت والتي أطلقتها أمريكا والعالم الغربي عليه..فهو لهذه الأسباب جبان، كذاب، مهزوم، مذلول..يستحق أكثر ما يستحق الشفقة!

كما أحدثت "أم الهزائم" أكبر رد فعل راديكالي عند شباب العرب، الذين بدؤوا يدخلون أفواجـًا إلى التنظيمات المتطرفة الأصولية من الخليج إلى المحيط، وكما يقولون أيضًا.. فانهيار الوهم النووي العراقي، دفع المتطرفين إلى البحث عن أسلحة لا تقل فتكًا وشراسة عنها، إلى أن

وصلوا إلى فكـرة الأجسـاد المفخخـة!.. التـي كـان الفضـل في هزيمـة العراقي في حربه إلى ابتكارها، وهم يدركون، أنها ربما ستكون هذه هـي آخر حروبهم بسبب شراستها ولكونها فعلاً معركة بقاء.

(ولأنك كاتبة عليك أن تصمتي.. أو تنتحري.. لقد تحولنا في بضعة أسابيع من أمة كانت تمتلك ترسانة نووية.. إلى أمة لم يتركـوا لهـا سـوى السكاكين.. وأنت تكتبين. وتحولنا من أمة تملك أكبر احتيـاطي مـالي في العالم، إلى قبائـل متسـولة في المحافـل الدوليـة..وأنـت تكتبـين-١٢٩، فوضى الحواس).. (سنتين كاملتين، تعلمت فيها أن أحتقر كـل أولئـك الكتَّاب، الذين في الجرائد والمجلات واصلوا الحيـاة دون خجـل، أمـام جثمان العروبة-١٣٠، فوضى الحواس).

بسبب الكارثة العراقية تحمل أحلام مستغانمي، كل أخطـاء النظـام العربي، إلى مجرد"بضعة أسـابيع" التـي كانـت السـبب الوحيـد في كـل الفشل المدوي الذي حصل وتحول العرب إلى قطيع من (قبائل متسـولة في المحافل الدولية)!.. ولكن كيف كـان حـال العـرب قبيـل الحـروب العراقية؟.. ألم يلحـظ عبـاقرة النظـام العـربي مـن مثقفـين وسياسـيين ورجال دين وعلماء وغيرهم، الزلزال العراقي وهو قادم لا محالة؟.. لقد وقفت الأكثرية ، مصفقين ومشجعين وداعمين لهذا النظام عندما اجتاح الأراضي الإيرانية!.. ثم إن أولئك الكتاب (الذين في الجرائد والمجلات واصلوا الحياة دون خجل) هم أنفسهم الذين روجوا للمشروع العراقي الفالت من عقاله والدموي!.. لو كان هؤلاء قد وقفوا إلى جانب مثقفي

العراق الذين خرجوا إلى المنافي البعيدة والذين لم تفتح لهم دول (العروبة) أبوابها، هل كان ما حدث سيحدث؟.. إن"جثمان العروبة" الذي تنعيه الكاتبة، قد مات منذ عام ١٩٦٧!

عام الهزيمة الحقيقية التي أعلنت نتائجها العسكرية نهاية العقل الحر، الديمقراطي، التنويري، وركز جيل العساكر أوضاعهم وتسلطوا على رقاب العباد في كل الدول العربية التي كانت معنية بالتنوير والتطور، وأفرزت تلك المجتمعات جيلاً من "مثقفي" السلطات التي احترفت التهريج على أعلى المستويات المخجلة.. كان يكفي أحلام مستغانمي أن تسأل أي عراقي في المهجر ، وكثير منهم كانوا في المهجر الجزائري، إن كان العراق قادرًا حقًا على صناعة- إبرة خياطة- عندها سيأتيها الجواب قاطعًا بلا!.. بل نحن نستوردها من الهند أو الصين!.. فكيف صدق العرب هذه الكذبة الجبارة من أن العراق قادر على مجارة الدول الكبرى في صناعاتها العسكرية!.. أم أنهم كانوا يريدون أن يصدقوا هذا الوهم؟.. إن ثقافة الجيوش وعسكرة المجتمعات هي ما يهم الأنظمة العربية ومثقفيها، وعلى قدر كبر هذه الجيوش يكون مقدار الاحترام وبالعكس، فالعرب احترموا أو خافوا من نظام العراق وجيشه الجرار الجائع، ولم يكترثوا للكويتيين لأنهم لا يملكون جيشًا، وهي نفس العقلية القبائلية السائدة منذ عهد امرؤ القيس.. لهذا كان استشهادها بالفرح الكويتي عندما حررت أراضيه ومقارنته بالعار!

(وأرى قوافل البائسين هاربة بالشاحنات من بلد عربي إلى آخر. تاركة كل شيء خلفها. بعد عمر من الشقاء.. ودون أن نفهم لماذا.وأرى

الكويتيين يرقصون في الشوارع حاملين الإعلام الأمريكية مقبلين صور بوش، مهدين الجنرال شوارزكوف حفنة من تراب الكويت، ولا أفهم كيف وصلنا إلى هذا-١٣٠، فوضى الحواس) أما نحن العراقيين فنفهم.. لأننا كنا وصلنا قبلكم بزمن إلى هذا الدرك من تبلد الحواس. إن هذه السطور تفضح النظام العربي، فالعراقي هو الذي فجر السطح البليد الذي كان يغطي هذا الفشل والعجز بفعلته الحمقاء.. إنه فشل أشد فداحة من فشل ١٩٦٧ أو هو نتيجته.. لقد انزاح العجز الخرافي، وفتح العراقي بابًا أمام الخراب العربي.. أو الفرصة الأخيرة لإنقاذه!.. لا أحد يمكن له التنبؤ بفداحة وحجم الزلزال العراقي، لكن الأكيد أنه لم يعد من الممكن أن نقف في نفس المكان.. هذا شيء قطعي. وحتى تخلص الكاتبة ضميرها من تهمة الجمع، كل ما هو سيئ إلى العراق، تحاول هنا أن تدين رأس النظام.. (وحده رجل غير مكترث بنا، لم يفقد قريبا في أي حرب من الحروب التي ارتجلها، ولا فقد في زمن المجاعة ولو شيئًا من وزنه. كان يظهر على الشاشات، يمارس السباحة على مرأى من غرقانا واعدًا إيانا بمزيد من "الانتصارات" -١٣٠، فوضى الحواس).. في النهاية أن هذا الرجل السابح على القرب من "غرقانا" قد كان يسبح ومنذ زمن طويل في دماء العراقيين، واعدًا إياكم بمزيد من "الانتصارات" وإيانا بمزيد من الموت والقحط!

كما تزيد الكاتبة في كتابها الآخر.. (في الدكاكين السياسية التي يديرها حكام زايدوا علينا بدهاء في كل قضية..باعونا "أم القضايا"

وقضايا أخرى جديدة، معلبة حسب النظام العالمي الجديد، جاهزة للالتهام المحلي والقومي. فانقضضنا عليها جميعًا بغباء مثالي، ثم بتنا متسميمين بأوهامنا، لنكتشف بعد فوات الأوان، أنهم مازالوا هم وأولادهم على قيد الحياة، يحتفلون بأعياد ميلادهم فوق أنقاضنا... ويخططون لحكمنا للأجيال القادمة-٩٣، عابر سرير)

هنا تقوم الكاتبة بإلغاء الشعب العراقي من خارطة الوجود، فيصبح الملعب العربي بين سلطة العراق وعشاقها أو كارهيها من العرب!.. وفي هذه الرؤية الكثير من الصحة.. فالعراقي بات منهكًا حد الموت"ماتوا جميعًا" بحيث لم يعد ينقذه من همه السلطوي والمشروع العربي الفاشل، سوى معجزة إلهية..أو أمريكية!. إنها إشكالية خطيرة تركت العراقي الذي أفاق من موته السريري على صوت المدرعات الأمريكية وهي تدخل إلى مدنه وتفتحها كما تفتح العذراء في ليلة الدخلة.. بين الرغبة والألم.. بين الخوف والشبق. فهي تقول"انقضضنا"..لماذا انقض المثقفون العرب على جثة العراقي أثناء الحرب العراقية الإيرانية؟.. لماذا صوروه بطلاً وهو في الحقيقة لم يكن أكثر من رقم بلا ملامح في قطيع كبير من الأرقام؟..

المرأة العراقية أيضًا في "ذاكرة جسد" أحلام مستغانمي.. ولكنها هنا العاهرة..

(حتى مومسات (بيغال) -حي العاهرات في باريس-المنتشرات على أرصفة الليل في هيئة لا يصمد أمام غواية التلصص على عريهن رجل،

لم أستطع وأنا أعبر شارعهن أن أقيم مع أجسادهن العارية تحت معطف الفرو، أي علاقة فضول، فقد كن يذكرنني بمشهد آخر تناقلت تفاصيله الصحافة العالمية لمومسات البؤس العربي. مشهد لو رآه زوربا لأجهش راقصًا، لنساء علقت رؤوسهن على أبواب بيوتهن البائسة في مدينة عربية. لا تخرج من حرب ألا لتبتكر لرجالها أخرى، وريثما يكبر الجيل الآتي من الشهداء. كانت تفرغ البيوت من رجالها ومن أثاثها، ومن لقمة عيشها، لتسكنها أرامل الحروب وأيتامها.لكن لا تهتم يا زوربا ..

يا صديق الأرامل لا تحزن.. الجميلات الصغيرات لا يترملن، إنهن يزيّن قصور سادة الحروب العربية، وحدهن البائسات الفقيرات يمتن غسلاً لشرف الوطن.. كما مات أزواجهن فداءً له.. وبإمكان رؤوسهن الخمسين التي قطعت بمباركة ماجدات فاضلات يمثلن الاتحاد النسائي.. بإمكانها أن تبقى معلقة على الأبواب يومًا كاملاً تأكيدًا لطهارة اليد التي قطعتها، كي يعتبر بها الفقراء الذين جازفوا بقبول مذلة (المتعة مقابل الغذاء) وتجرؤا تمنوا شيئًا آخر في هذه الدنيا غير إضافة جماجمهن لتزيين كعكة عيد ميلاد القائد-٢٩، عابر سرير)

هنا منتهى القسوة والوضوح في تجريد العراقي والعراقية من كل الصفات الكاذبة التي أغدقت عليه بشكل استثنائي أثناء حروبه دفاعًا عن- شرف الأمة- ضد إيران.. السلطة فاسدة، متوحشة، تسحق البنى التحتية للشخصية العراقية بلا رحمة، العاهرات فيه فاضلات

وبالعكس.. إنسان مذلول، خانع.. مجتمع لا يضم سوى القتلة والمقتولين. وما يحسب للكاتبة، أنها الأولى وربما الوحيدة التي تناولت ولو بشيء بسيط لكنه جميل، وصف الحادث الشنيع الذي أقدمت عليه سلطة الخراب البعثي في العراق ألا وهو إعدام العاهرات (أو هكذا اتهمن) بحد السيف العربي!

لكن العراق كان قد تحول بعد الحروب الكثيرة والحصار والانكسار النفسي والأخلاقي، إلى إفراز طبقة كبيرة من العاهرات والأرامل والفقراء الأذلاء وهذه نتيجة طبيعية تحدث في أي مجتمع يخوض كل هذه التجارب المؤلمة من الحروب الخاسرة.. بل لقد تحول ما سمي وقتها، بالاتحاد العام لنساء العراق، إلى وكر كبير يمارس به العهر(الثوري)!.. إن العراقيين الذين قبلوا بالذل والخنوع، مرتين، الأولى للنظام الوحشي والثانية لصفقات النفط مقابل الغذاء (المتعة مقابل الغذاء) كانوا مسئولين بشكل أو آخر عما جرى لهم.. وهل يوجد إذلال أكثر من هذا وصف لرجال (جرؤوا على التمني) وقبلوا برص جماجمهم بكل خضوع!

جدير بالذكر أن كتاب (عابر سرير) قد صدر عام ٢٠٠٣، فعندما حدثت منازلة (أم الهزائم) كان العربي في كتابات أحلام مستغانمي لا يزال يرجو (خيرًا) من نظام أبدى استعداده الكاذب لرد كرامة الشارع العربي!.. أما في كتابها الثاني، فقد انكشف كل شيء وعليه فإن صب جام الغضب على النظام وبالتالي على العراقيين شيء منطقي!.. لأنه

المسئول عن كل هزائم العرب وهـو الـذي جسـد (جـثمان العروبـة).. لكنني اتساءل.. أيضًا.. ماذا لو خرج العراق (منـتصرا) في (أم الهـزائم) وتحولـت بالفعـل إلى أم المعـارك!؟. .بالتأكيـد كـان المـداحون العـرب سيضفون عنـدها كـل صـفات البطولـة عـلى العراقـي الـذي حـارب وانتصر، وكـل صـفات الإلوهيـة عـلى قيادتـه(الحكيمـة) وذاب اسـم الكويت في (أسيد) الـذاكرة العربيـة المتعبـة!.. مجـرد سـؤال لا أرغـب بسماع جوابه!

أخيرًا نختار هذا المقطع الجميل من كتابهـا.. (يحضرني دائـما في مثـل هذا الوقت، قول ساخر لبرنارد شو معلقًا على تمثال الحريـة في أمريكـا" إن الأمم تصنع تماثيل كبيرة للأشياء التي تفتقدها أكثر" وهو مـا يـفسر وجود أكـبر قـوس عـربي للـنصر في البلـد الـذي مني بـأكبر الخسـائر والدمار-٣٠٧، عابر سرير)

غالب هلسا

الكتاب (ثلاثة وجوه لبغداد)، هو عمل الروائي الأردني الرائع..غالب هلسا. الصادر عن (آفاق للدراسات والنشر) في نيقوسيا-قبرص، في طبعته الأولى عام ١٩٨٤ من القطع المتوسط وفي ٢٢٤ صفحة.

أعتقد أن هذا العمل الروائي واحد من أهم ما كتب عن بغداد بصدق يصل أحيانًا بنا إلى حدود اللامعقول.. صدق جارح، بل دامٍ.. ربما عن حب وعكس ما خرجتُ به من قراءتي الأولى للعمل أن غالب هلسا يكره بغداد!.. وربما البغداديين.. (تحولت بغداد بالنسبة لي إلى ليل دائم-١٢٧).. الشخصيات عمومًا هي سلبية تمامًا!

لقد خرج غالب هلسا من السجن المصري وطار إلى بغداد.. التي كانت تعد العدة للإطباق على كل اليساريين ورميهم بمصيدتها التي تعدها لهم.. الطعم الذي تم جذب غالب هلسا به إلى بغداد مع كثير من يساريي العرب اسمه (الجبهة الوطنية).. سار مع السائرين إلى المصيدة العراقية، في دلالة على بله سياسي أو انعدام البديل أو ربما الوعي..فما

من أحد استطاع بدقة أن يقرأ تجربة عام ١٩٦٣ في العراق مـن المثقفـين العرب، وتحليـل أسـباب دمويتهـا المفرطـة ومـن كـان المسـئول عنهـا والمتسببون بها!.. إن غالـب هلسـا يـأتي إلى بغـداد، وهـو يحمـل نظـرة استشرافية وحنينًا هائلاً إلى الماضي.. بغداد بشكلها الحالي لا تعجبه أبدًا فيحاول جاهدًا استبدالها بأخرى في خيالـه.. كـما أنـه لايخفـي ميلـه إلى بغداد التـي تتوسـط بطـون التـاريخ..تلـك الجميلـة، الثريـة، المثقفـة، الأنيقة..إلخ، مما خلفته لنـا قصـص ألـف ليلـة وليلـة. لا يريـد هلسـا الاعتراف بأن بغداد قد أصابها القبح كـما المـرض الجـذام ولا أن يفهـم غموضها..ولا أسباب تعبهـا مـن كثـرة اغتصـابها سياسـيًا واجتماعيًـا وأخلاقيًا وعمرانيًا من قبل أبنائها.. ولماذا أدمنـت حكـم العسـس منـذ زمن طويل واستسلمت له، تستبدلهم بين الحين والآخر ، لكن بنفـــس النوايا الشريرة، والوجوه الكالحة والأرواح الحاقدة.. فـما أشـبه اليـوم بالبارحة بالغد!

تبدأ رحلته داخل بغداد بشكل يثير في نفسه الأسئلة المريبة.. (ولكن هذا الشارع صامت، والضوء شحيح، كأنه ضوء ساعة ما قبـل الفجـر. ما قبل خلق العالم بلحظة. الشـارع خـال مـن الـبشر. مشـحون بتوقـع غريب. يتراوح بين الخـوف وتحقيق المستحيل، سار وكان لوقع أقدامـه صدى-١٥)... (كان قد تجاوز الجزء الأكبر من الشارع. ثم فجـأة رأى شجرة.شجرة كبيرة، مليئة بالأوراق، والأغصان.قدر أنها شـجرة تـين، كانت تقع على يسـاره، وراء سـور، وكـان الضـوء يتخللهـا مـن جميـع

الاتجاهات، بدت خارج سياقات الشارع. اللبص، المعتم، ولكنها تندرج في سياق بغداد. شجرة مرحة، هل يمكن قول ذلك؟ أعني كانت كأنها ضحكة، في وجه قاتم، ليس لها معنى، على أي حال. رأى شجرة فاتخذ القرار، سيعيش بين هؤلاء الناس-١٧، ١٦).. إنه القادم من القاهرة.. تلك العاصمة الخرافية التي تستأثر بعقله وقلبه.. يبقى متعلقًا بها حتى في النوم.. (ثم تذكر أنه في بغداد. لقد كان يحتاج إلى قدر من الإرادة واليقظة ليتذكر أنه في بغداد ، لم يكن سهلاً.القاهرة تحتويه تمامًا فتظل بغداد عابرة-١٨)

لا يجد البطل اليساري القادم من المعتقل المصري بدًا من الاندماج في الحياة الثقافية العراقية الملتهبة والتي هي جزء مهم من أجزاء المصيدة السياسية التي تعد لها السلطة.. (وسارت الأمور في تتال متوقع، ومريح. انتهت بسيارة مرسيدس ٢٢٠٥ وقفت أمام الفندق البائس الذي يسكنه، فحمل ملابسه القليلة، وسارت به السيارة إلى فندق فاخر ليصبح ضيفًا على الحكومة العراقية-٣٣).. لقد كان مثقفو العراق في تلك المرحلة (السبعينيات) جزءًا مهمًا من اللعبة السياسية (لعبة القط والفار) وكان طرفا النزاع، الشيوعي العراقي والبعثي العراقي، يشحذون سكاكينهم تأهبًا للانقضاض والانتقام والغدر، والتي كانوا يخفونها خلف ابتسامات واسعة وأسنان بيضاء.. وكلاهما قد ساهم وبشكل كبير في تدمير الحياة السياسية في البلد والقضاء على أي إنجاز ديمقراطي فيه الحد الأدنى من احترام الخصم السياسي التي ورثها

العراق الحديث عن فترة الملكية والتي نعـم فيهـا العراقيـون بنـوع مـن السلام.. فقد (اتفق) الشيوعي والبعثي، بدون اتفاق على اغتيـال تلـك الفترة أدبيًا وسياسيًا وتغييبها عن الذاكرة العراقية الجمعية، ولقد نجـح كلاهما في ذلك ومن يرد الاطلاع على موقف الحزبين مـن الملكيـة عليـه الرجوع إلى (أدبيات) كلا الحزبين. وربما كـان هـذا هـو الأمـر الوحيـد الذي (اتفق) فيه الطرفان المتنازعان تاريخيًا. عمومًا، يصف هلسا في هذا المقطع بعضًا من تفاهة ورتابة المشهد الثقافي في تلك الفترة، التي يعتبرها العراقيون، عصرًا ذهبيًا!! أي فترة الجبهة الوطنيـة.. (شـارك غالـب في بعض النشاطات الثقافية، ولكنه لم يحقق المشروعات الكبيرة التـي كـان يحلم بإنجازها، شرب البـيرة في بـارات شـارع السـعدون، والويسـكي المغشوش في دار اتحاد الأدباء، والشاي صباح الجمعة في مقهى البرلمان. كان طرفًا في بعض المؤامرات الأدبية، وتعرض لكثير منها.

تحدث عن المساواة بين المرأة والرجل، فنالت آراؤه موافقة جماعيـة، ولكنها قللت من احترام الآخـرين لـه.قـال آراء في الحيـاة الاجتماعيـة واعتبرها السامعون نكاتًا.

وقال نكاتًـا اعتبروهـا آراء. أزعجـه هـذا الخلـط فحـاول أن يشرح فاعتبروه ظريفًا جدًا، فانتهى الأمر به إلى اليأس-٣٤).. يبقى هلسـا في خيالـه يبحـث عـن بغـداد أخـرى..كـما تلـك التـي يحملهـا في خيالـه الخصب..(حلم يقظة أعيش فيه بغداد عباسية-١٢٨)..(أسير الآن في موازاة قلب الحي، لمحة من الشـارع الضـيق، النظيـف، الـذي يتخلـل

الحي، ويتوه في عمقه بغموض، ولّد في داخلي شوقًا لبغداد أخرى: بغداد الخمسينيات الملفعة بضباب عصر عباسي-١١٥).. (المرأة؟ وتئن أحشاؤك شوقًا. وتمتلئ بانفعالية مضى زمنها، إذ تراها-تلك المرأة- في إطار التاريخ- الأسطورة حلم اليقظة متجذر في التاريخ. في عراقة الماضي، وحكايات ألف ليلة وليلة، وكتاب الأغاني و.....هذه بغداد في النهاية، والذاكرة لا زمن لها.وهذا الشارع ذاكرة الأسطورة والتاريخ والحلم، وأنت في قلبها-٣٧)

يستعين الكاتب باللهجة العراقية الحادة.. إعجابًا أو سخرية!.. لكن توظيفها في العمل جاء موفقًا خصوصًا للقارئ العراقي(على الرغم من أن هذه الرواية من الممنوعات في العراق!)، فاللهجة العراقية تتمتع بخصوصية خاصة لا تشابهها أي لهجة عربية أخرى، كما أنها تعكس جانبًا من فجاجة ومزاجية الفرد العراقي.. (همس رقيق، حلقي، هنا، يستطيع غالب أن يلتقط عبارات، مثل"إنه وداعتك ووداعة أبويا" .. "هلا بالورد، هلا بيك عيوني".. "آني ممنون".. ثم يتساوى الإيقاع ويزداد علوًا، يترافق مع ضحكات قوية أو شتائم من نوع "قواد، قندرة، زمال"ويظل يتعالى، الإيقاع-٤١). ولم تغب عن عين الكاتب الواعية لمفردات الشخصية العراقية، صفة الحزن الدفين والشرود الذي يسبق الانفجار العنيف الذي مارسه العراقيون كتقادم الفصول، والذي ينعكس بالتالي على مزاجية المدينة!..وبالعكس!

(- ليلى! لم ترفع رأسها، قدر أنها لم تسمعه أصلاً. قال لنفسه، إن

هذا الشرود الطويل، والحزن الذي صمد للزمان، بهما نستعيد تلك العراقة التي أخذت تزول. إنهما تعويضة وعزاؤها عن تلك الحركة الخرقاء، التي تجتاح شوارع المدينة-٧٠).. أما حالة الرعب الملازمة لأختها صفة الحزن، فإنها هي الأخرى، لم تخف عن عين المؤلف المدربة جيدًا على رصد الإشارات وتحويلها إلى كلمات مؤثرة.. ذلك الرعب الذي يطارد أصحابه حتى في الأحلام.. (ويقول الصوت صامتًا، باكيًا، حزينًا حتى الموت: تذكر - يا جنيني- عذوبة أماسي الصيف، ليالي الشتاء والقهوة المرة، والشاي.... تذكر مذاق الحلوى- عندما كان لها مذاق يشيع في فمك وأنفك، وأذنيك، يفتح مسارب صدرك- والحكايات المخيفة، يقودك رعبها للنوم مخدرًا، خائفًا من الهمسة، وتملأ أحلامك بموجودات صماء، تتحرك في قلبها حياة غامضة، فتتشكل، وتحاصرك، وإذا بها تلك الغولة التي تستعد لالتهامك، فتخبئ رأسك في نحري، وتذوب بين نهديّ.. هل نسيت ذلك كله، حتى تلغيه وتدمره من أجل هوية واسم! ماذا استفدت من عالم الكبار برتابته، ومنطقيته وشعاراته ونظرياته..!-٧٧)..العسس حاضرون بقوة، في كل مكان، فلا يمكن أن يكون الرعب المبرمج فعالاً بدون عسس، مهنة العراقيين التي يحترمونها ويمارسونها منذ أجيال بعيدة!.. (على يسارنا وراء البيوت الواقعة في شارعنا، غابة نخيل، تتناثر بين جذوعها أشجار اللارنج والليمون، بين آن وآخر يلتقط ضوء السيارة شبح امرأة ملفوفة بعباءتها السوداء تسير برفقة رجل، رأيت فتيات يهبطن من سيارة أجرة،

توقفت أمام أحد البيوت برقت سيقانهن وهن يغادرن السيارة، رجال شرطة يجلسون داخل سيارة مظلمة، تماثيل سوداء، مصمتة-٩٣)..
(التقطت عيناي رجال الشرطة، جالسين على الدكك الخشبية، يشربون الشاي من استكانات صغيرة ويدخنون كانوا صامتين٩٣).

إن غالب هلسا ذو قدرة كبيرة على تحويل العادي إلى شيء مبهر.. لافت للنظر والفكر.. فها هو يلتقط حديث فلاحين في باص نقل عام للركاب، ليسلط النظر على عمق الهوة التي تفصل بين النخب الحاكمة والمعارضة لها، والتي تنتظر دورها في الحكم، وبين بسطاء الشعب العراقي وعامتهم. فالحكومة.. أي حكومة، هي فاقدة للمصداقية بنظر هؤلاء الذين عانوا أجيالاً بعد أخرى من كذب واضطهاد الحكومات المتتالية، إلى أن أصبح الطرفان يمثلان طرفي المعادلة التي لا حل لها

(..كان الفلاحون يجلسون على الكراسي التي أمامي ويتحدثون بصوت مرتفع. كان موضوع حديثهم إشاعه تقول إن الحكومة قررت أن تمنح كل راعي غنم قرضًا طويل الأجل، ودون فوائد قدره عشرة آلاف دينار، وسيارة مرسيدس هدية، وأخذ الفلاحون يبدون دهشتهم ويتساءلون عن السبب الذي جعل للفلاحين كل هذا الشأن قال أحد الفلاحين إن هذه أكاذيب تعودت الحكومات على ترديدها، تذكروا أيام عبد الكريم قاسم؟ لقد قالوا إن كريم سوف يزوج كل فلاح معلمة مدرسة.

انتظرنا المعلمات فلم يحدث شيء، أكاذيب الحكومات نعرفها-٩٥)..

ثم ينتقل بنا البطل غالب(هلسا)، في مشهد بانورامي حزين داخل بغداد.. عندما استقل تاكسيًا في ظهيرة ذلك اليوم من أيام الصيف اللاهب.. (شاهدت نساء بعباءات سوداء، تغطي الجسد من قمة الرأس إلى القدم، وبوجوه بللها العرق، يحملن أكياس نايلون ملونة أرى وراء شفافيتها خبزا وخضارًا حمراء وخضراء ولحمة كان ذلك نتيجة للوقوف ساعات طويلة في طوابير الجمعيات الاستهلاكية والأفران والدكاكين الصغيرة. شاهدت رجالا يلبسون الكوفيات منقطة وعقل غليظة، لهم وجوه مكدودة ضامرة بدت لي كالأقنعة....... أصبحنا في شارع الجمهورية، الهواء القادم من شباك السيارة المفتوح يأتي لاسعا، عنيفا كلسان ناري يلعق الوجه بشراسة.أمام العيادة الشعبية تقف عشرات الوجوه المنتحبة بصمت، الضارعة بصمت، تنتظر.

نساء بعباءات سوداء، رجال بكوفيات وعقل، أطفال سمر معلقون على الصدور، أطفال دارجون بين الأقدام، أو واقفون في صمت كالتماثيل بعيون سوداء، واسعة، حزينة، إلى جوار أمهاتهم، كلهم ينتظر في جحيم بغداد الملتهب وأعيش للحظات- وأنا أكاد أختنق- كوابيس طوابير الانتظار:طابور يمتد من داخل الفرن إلى الرصيف، إلى الشارع، وأنا أتفسخ وأذوب بالحرارة المنبعثة من الفرن المشتعل، وعندما أصل إلى بائع الخبز يقول لي:

عيني، ماكو صمون!

فأنصرف ملتاثًا بالحر والخيبة، طوابير طويلة لشراء كيلو طماطم، أو خيار، اكتشف بعد شرائه أنه لا يصلح للأكل، طوابير داخل الأورزدي باك لشراء

علبة سجائر أو استكانات لشرب الشاي.. طوابير.. طوابير.. لا تنتهي أبدًا وكأنها تتولد. وتواصل السيارة اندفاعها في شارع عريض يمتد لما لا نهاية.. ولما لا نهاية تتكرر "أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة" مكتوبة بخط أخضر بارز فوق أرضية من الزجاج الصيني الأبيض، معلقة على شرفات وفوق بوابات دوائر حكومية، ومؤسسات غامضة، وعمارات سكنية. ومطاعم كباب ومحال بيع الشربت، بداية الوزيرية صورة كبيرة لرئيس الجمهورية يبتسم بأدب، مكتوب تحتها"الرئيس أحمد حسن البكر مثال رائع للمناضل البعثي" – صورة أخرى لنائب رئيس الجمهورية وهو عابس يرتدي ملابس عسكرية. مزينة بنياشين كثيرة، صورة أخرى لرئيس الجمهورية ونائبه.. الرئيس يبتسم برقة ونائبه يضحك........ نمرق تحت الجسر الحديدي" أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة" ، "وحدة حرية اشتراكية" معلقتان فوق دار الجماهير، تزاحم السيارة وتناور، وهدفنا ساحة باب المعظم. زحام هائل، آلاف البشر يقفون بانتظار باصات تنقلهم إلى أماكن متفرقة في المدينة، تجيء الباصات وتمضي ويظل الزحام على حاله......... أوقفت السيارة قبل استدارة الساحة، وواصلت مسيرتي مشيًا. توقفت في انتظار إشارة عبور المشاة، ولم أشارك السائرين مناوراتهم الجسورة لعبور الشارع. وسط اصطكاك الفرامل وشتائم السائقين. انفتحت إشارة المرور ولكن سيارة فولفو مرقت مسرعة كالسهم بين العابرين. قوانين المرور يحترمها الضعفاء فقط.في الطرف الآخر من الساحة يجلس

بائع السجائر الوقور المقطوع الساقين على الأرض أمام سجائره ١١٢، ١١٣، ١١٤).

ثم ينتقل بنا الكاتب على جناح السخرية السوداء، إلى مشهد من أهم مشاهد العراق السياسية المطبوعة بروح (البلطجة).. مشهد اغتيال عبد الكريم قاسم، الذي يذكره العراقيون كلهم وعلى اختلاف أهوائهم من هذا الشخص. فعبد الكريم قاسم، هو أول رئيس لأول جمهورية في العراق الحديث.. مشهد سريالي آخر من المشهد العراقي العام الشديد الغرابة.. شخصية لم يتم الاتفاق- كالعادة – على تقويمها بشكل عام، فمرة يذكر قاسم على أنه قاتل العائلة المالكة في العراق، ومرة يتم تصويره على أنه ثائر على الاستعمار البريطاني الذي كان يحكم العراق من وراء العائلة المالكة، مرة أخرى كمشجع على أعمال الغوغاء التي قامت بتحريض من الحزب الشيوعي المتحالف معه، في مدينتي الموصل وكركوك، ومعها يتم استذكار حوادث قطار السلام وما رافقها من أعمال دموية، ومرة على أنه أول من وضع لبنة الصرح العراقي الحديث وبداية نهضته الوطنية.. عفيف، نزيه، نظيف اليد.. هذا ما يتفق عليه الجميع وأولهم أعداؤه.. قتل في عام ١٩٦٣، في مشهد مريع وبعد محاكمة صورية من بعض المغامرين وشذاذ الآفاق، ولقد تم البصق على وجهه (بعد إعدامه) على مرأى من العراقيين ومن خلال شاشة التليفزيون!.. ثم تحولت جثته إلى عبء على قتلته، لهذا تم الاتفاق على رمي جثته في النهر!.. وهنا يصف غالب(هلسا) مشهد لقائه

بأحد(أبطال) محاولة اغتيال قاسم الأولى التي باءت بالفشل.. (في تلك اللحظة هاجمني الضحك فقاومته بصعوبة، إذ تذكرت ما قاله لي أحد المسئولين، الذي يكن عداوة للمدير العام.إن كل أمجاد هذا المدير أنه شارك في اغتيال عبد الكريم قاسم على النحو التالي: لقد صدر إليه الأمر أن يرتدي ملابس النساء، وأن يقف قرب المكان المقرر للاغتيال. ثم عليه بعد إطلاق الرصاص على قاسم مباشرة أن يصرخ بصوت نسائي، عال وواضح:

- واويلاه!الشيوعيون كتلوا الزعيم..!

وقال لي ذلك المسئول، تصور، أنه حتى هذا الدور لم يقم به، فلقد انصرف بعد إطلاق الرصاص بعباءته وأقراطه الذهبية دون أن يطلق ولولة واحدة-١١٩).

ثم ينتقل هلسا إلى الانتقاد المباشر للسلطة الحاكمة ويصف كابوسها الطويل على بغداد في مقاطع مهمة تبرز جانبًا من جوانب الشخصية العراقية بنظر العربي..

(فاجأتني صفائح الكارتون السوداء، تمتد على ارتفاع متر عن الأرض، تغطي الحجرات التي يوجد فيها فتيات تابعة للمكتبة الوطنية.اعتقدت في البداية أنها موضوعة بمناسبة عيد ما.من تلك الأعياد التي لا تنتهي.يوم أو يومان وتزول.ولكن هذا الكابوس الأسود، ذلك الليل الأبدي، استمر على الأيام والسنين-١٢٠).. (المهم أن المدير العام اختفى من الدائرة وأن مديرا آخر حل مكانه وأن هذا

الأخير جاء من إحدى الإدارات الغامضة، وقيل إنه سوف يعود إليهـا. وقد علمت أن هذا المدير كان شيوعيا سابقا، ثم انضم إلى حزب البعث في السبعينيات، وأصبح فجأة من أشد المتعصبين لأفكار الحـزب، ومـن المغالين في عدائهم للماركسية.يقال إنه مرة قابل أحد معارفه ولامه لأنـه كتب مقالا في إحدى الصحف عن مدام كوري، قال له"لمـاذا لم تكتـب مقالا عن الخنساء بدلا من الكتابة عـن امـرأة شـيوعية" ولا أعلـم مـا انتهت إليه هذه المناقشة، ولكن قيل إن أستاذ الفيزياء الجامعي هـذا قـد تم نقله إلى معلم أطفال في قرية في جنـوب العـراق- ١٢٣)... (عنـدما خرجنا لم ينظر أحد منا إلى الآخر، أو يعلق عـلى الحـديث الـذي دار، لا أحد منا أخذ ما قاله المدير مأخذ الجـد، فـما داعـي الحـديث والنقـاش، خاصة ونحن نعلم أن ما يقال يصـل إلى أسـماع المسـئولين مـن خـلال مسارب يصعب تحديدها-١٢٤).

يحلل بعمق الوضع السياسي والاجتماعي العام وبدقة، يضع أصـبعه على بدايات الخلل، وهو خلل مر به كـل العـراقيين، وخصوصـا مـنهم المهتمون بالشأن السياسي وعمله.. (تلك الآلام التي تصاحب نهـوضي من وراء المكتب، وانحنائي لالتقاط شيء مـا مـن الأرض، آلام العنـق التي أشعر بها حين استرخي في كرسي مريح لم تكن آلامـا جسـدية، بـل نتـاج الخـوف الكـامن في عظـامي، أدركـت لحظتهـا بحـدس فاجـأني وأدهشني أنني شاركت في صناعة هذا الخـوف عنـدما تجنبـت الصـدام والمواجهة، واخترت الانزواء والانصراف إلى القراءة والكتابة، وعنـدما

قبلت بالأمر الواقع اعتمادا على من كانوا يرون أننا نعيش في أحسن العوالم الممكنة ١٣٣).. كما أنه يقدم وصفًا لأسباب هذا الخوف الذي استولى على العراقيين وبالتالي عليه.. و مدى احتقاره لهؤلاء الذين يحمون هكذا دولة ونظامًا.. (إنهم مجرد حثالات-مكبوتة جنسيا- يمتلكون قدرًا من السلطة- ١٣٦).. لكن مع هذا يتحول الخوف إلى مرض عضوي في النهاية.. (لم يكن هذا الحادث فريدا من نوعه، كل يوم تقريبًا يحدث شيء يؤكد هذا الخوف ويجعله يتحول إلى جزء عضوي من الجسد، يشتبك مع اللحم والعظم والأعصاب لقد توقفت عن جولاتي الليلية، وملأت الثلاجة بالأطعمة- فقد استولى عليّ هوس اكتناز الأطعمة حتى لا اضطر للخروج ليلاً لتناول العشاء-١٣٨).. إنها سياسة مبرمجة ومدروسة، جرعات من الخوف إلى أن يتحول إلى كائن خرافي لا يقهر، مارستها السلطة العراقية في ذلك الوقت ضد الشعب العراقي بقدر كبير من الذكاء والخبث.. وفي هذا المقطع ينقل لنا هلسا، مشهدًا سرياليًا آخر لم يحدث في أي بلد من بلدان العالم الواسع.. إنه مشهد صبغ سيقان الفتيات.. (أما بالنسبة إلى المرأة فلقد كانت المسألة تثير الفزع حقًا، فلم يتوقف إلا منذ وقت قريب ذلك المشهد الذي ينقلك إلى جو الكوابيس، مشهد رجال الشرطة يحملون جرادل مملوءة بالصبغة السوداء، والفرشات، يستوقفون النساء اللواتي يرتدين ملابس قصيرة، ويدهنون سيقانهن بالصبغة السوداء، تكون المرأة واقفة تطالع إحدى الفاترينات، فتفاجأ بالشرطي ينحني على ساقيها ليباشر

تلك المهنة الغريبة: إحدى النساء جعلتها المفاجأة تقفز من الرصيف إلى الشارع، صدمتها سيارة مسرعة فماتت على الفور، وأخريات كن يصبن بحالة هستيرية، ينقلن على أثرها إلى المستشفى، وأحداث أخرى أشد غرابة، فكل رجل يسير مع امرأة في الشارع معرض لاستجوابات رجال الأمن، الذين يقودونه إلى أقرب قسم للشرطة، وهناك يطالبونه بأن يثبت أن صلة عائلية تربطه بالفتاة، وحين يعجز عن إثبات تلك الصلة ينال الاثنان نصيبهما الوافر من الضرب والإهانات، وتستدعي عائلة الفتاة لاستلامها. أما الشاب فيحلقون شعره، ويضعونه في سيارة مكشوفة، تسير في الشوارع ببطء وخلال ذلك يتناوب رجال الشرطة ضربه وتوجيه الإهانات له-١٣٨)... بعد أن ابتلع العراقيون جرعات الخوف بدون مقاومة، واستسلام منقطع النظير أقرب إلى الجبن الصريح، اكتملت أعواد المصيدة وأطبقت عليهم بسهولة.. تفرغ البعثي العراقي إلى الشيوعي العراقي، وأصبح الإفلات من هذه المصيدة شيئًا أشبه بالمستحيل.. (بعد فترة قصيرة تقوم قوات الأمن باعتقال عضو الحزب الشيوعي المستعصي، وتمارس معه أنواعًا من الحوارات، يقف على رأسها الحوار الجنسي، يتم هذا الحوار على النحو التالي: الاغتصاب الجنسي للرجال والنساء (من أين لأجهزة الأمن هذا العدد الكبير من الشاذين جنسيًا والساديين؟ سؤال مشروع أليس كذلك؟) إرغام الشيوعي أو الشيوعية على الجلوس فوق زجاجة مهشمة العنق، وإدخالها كاملة في المؤخرة.الزجاجة المستعملة هي زجاجة بيبسي كولا،

وهي ليست كبيرة الحجم (هل يعني اللجوء إلى الزجاجة أن أجهزة الأمن تعاني نقصًا في عدد الشاذين جنسيًا) لا. لأن الزجاجة كانت تتحول إلى كائن آخر، شرير، ومشبع بالرعب- ١٦١)

لم يكتف غالب بنقل ما يحدث في جانب الحكومة والعاملين معها ولها، بل إنه ينقل لنا ما يحدث في الجانب الآخر.. الحزب الشيوعي العراقي، الذي تشرذم بدون مقاومة، وإبداؤه الاستعداد المازوخي في تقبل الإبادة الجماعية التي مورست ضده، كيف كان الانهزاميون فيه يروجون بسذاجة وبلاهة تقربهم إلى صفوف تلامذة المدارس وليس إلى مستوى سياسيين يريدون قيادة البلد..عندما روجوا إلى أن السيد النائب(صدام حسين) يمثل التيار المتنور واليساري في صفوف حزب البعث القومي صاحب التجربة الدموية لعام ١٩٦٣..(هناك صراع داخل السلطة بين مجموعة يسارية وأخرى يمينية، المجموعة الأولى يقودها ويجسد أهدافها السيد النائب، أما المجموعة اليمينية فتدور في فلك رئيس الجمهورية، ثم يصبحون بالغي الرقة عندما يخبرونك عن طبيعة المجموعة اليسارية داخل السلطة(ما الداعي للالتفات حول الأمور الواضحة؟هذه المجموعة تمثل اتجاهًا ماركسيًا لينينيًا بالتحديد!) ويرى نائب رئيس الجمهورية (يطلقون عليه تحببًا اسم السيد النائب) أن سياسة الحوار هذه موجهة ضده بشكل أساسي. وهو يعمل بدهاء شديد لتغليب الاتجاه اليساري داخل الحزب الحاكم على الاتجاه اليميني، وأنه سيتقدم في اللحظة المناسبة، ويضرب ضربته، رافعًا راية

الماركسية اللينينية.السيد النائب يعلن بصراحة ووضوح أنه لا أساس لكل هذه التحليلات وأن الحوار هو مشروعه وأن كل ما يتم هو بـأمره وتحت إشرافه، وقد تحدث مطولاً عن هذا، وطلب من المحللين الحالمين ألا تستغرقهم أحلامهم.(دا تشوف؟ السيد النائب يناور-١٦٢)....

(وأي شيء لم نكن نراه على شاشة التليفزيون. النائب يزور البيوت ويسأل الناس عن مشاكلهم. ويأمر بتجديد الأثاث التالف، ويتبرع بمهر المقبلين على الزواج، ويزور معسكرات الطلبة، ويداعب شعر الفتيات ويمازحهن، ويبتسم، ويبتسم، ويبتسم، ويقهقه أحيانًا، وتهتز كتفاه ، وفي أحيان أخرى بضحك مكتوم. لقد أصبح السيد النائب هو الممثل الرئيسي في التليفزيون. ها هي جماهير غفيرة تتزاحم حوله)...

(على شاشة التليفزيون كنا نرى النائب في كل مكان، وفي كل الأوقات. باستثناء الأماكن التي نوجد فيها، ولكننا نحلم ونأمل أن يزورنا في بيوتنا ويجدد أثاثنا التالف.كل شيء بدا باعثًا على الاطمئنان، هو انحراف مؤقت، وسوف تتعدل الأمور سريعًا. ولكننا فوجئنا بالمكتب السياسي للحزب الشيوعي يصدر بيانًا داخليًا (بعد موجة رهيبة وواسعة من الإعدامات والتصفيات والاعتقالات) كان البيان موجهًا إلى أعضاء الحزب يقول فيه: من استطاع الهرب منكم فليهرب.

ومن أمكنه الاختفاء فليفعل، إن المجموعة اليمينية هي قيادة الحزب الحاكم كلها. وليس مجرد جماعة صغيرة تلتف حول رئيس الجمهورية-١٦٣).

من أجواء السياسة الدامية، ينتقل بسلاسة إلى تفاصيل الحياة العراقية.. التي أثبت لنا أنه لم يستطع سبر غورها، وبقيت بالنسبة له لغزًا يحتاج ربما لعمر آخر يعيشه في بغداد، للوصول إلى قاعها البعيد.. (حديثها-لم لا أقول ثرثرتها؟-قادني إلى حياة بغداد الداخلية.كان لها أسلوبها الخاص في الحديث، أسلوب تلقائي، طلق، تستطيع في عبارات قصيرة محايدة، خالية من الخلفيات والشروح.وكأنها تفترض فيّ معرفة كلية بموضوع حديثنا، أن تخرج الشخصيات من نطاق المجتمع العراقي المجهول لدي، والغامض، إلى دائرة البشر، ذوي الدوافع والعلاقات والأهداف المفهومة، كانت تدع لي وضع خلفيات الموقف، فكنت أستعير خلفيات أردنية ومصرية، هنا يبدو لي المجتمع العراقي أليفًا.كانت سهام بأحاديثها هي الحبل السري الذي يربطني بمجتمع منطو على ذاته، وكان مجرد سؤالي عن بعض الخلفيات والتفاصيل يربكها، ويجعلها ترسم صورة لمجتمع غير مفهوم وشديد الغرابة، فكانت تهرب من هذا الإرباك بالجنس-١٦٦). إن بغداد قد استنفدت كل دهشته وغرابته..امتصته وهي تطلب منه المزيد من الدهشة، والصبر لاستيعاب غرائبية هذه المدينة..ورغم أنني لم أعد اندهش لشيء في هذه المدينة-٢١٦)

كانت عصية على الغريب، وأعتقد أنها لا تزال كذلك، فقط من نشأ فيها وترعرع يبدو منجذبًا إليها بحب غريب فيه الكثير من القسوة!.. حتى الآخرون من أبناء العراق، كانت بغداد تصدمهم وتصدهم وتدفعهم إلى كراهيتها حينما يهاجرون

إليها، وربما تلفظهم ويبقون فيها غرباء..كما حدث إبان الهجرات السكانية الكثيفة لأبناء الجنوب العراقي نحوها، بدءًا من عام ١٩٥٨ ولحد الآن، حيث تجمع هؤلاء بالملايين وشكلوا طوقًا بشريًا هائلاً حولها، وأحياء مليونية على أطرافها.. إلا أنهم بقوا بعيدًا عن قلبها الذي ظل يرفضهم.

للمرأة العراقية بنظر غالب هلسا ثلاثة وجوه.. وهنا يندمج الجغرافي بالإنساني.. بغداد والمرأة.. (ومن خلال سهام تعلمت أن أبحث عن وجوه المرأة العراقية الثلاثة. الوجه الأول، أن أراها داخل إطارها الاجتماعي المتخلف، وهي في حالة خضوعها له، وقبولها به، أو تظاهرها بالقبول، وهو الوجه القبيح، الذي عرفت سهام في البداية من خلاله، بدت لي فتاة سمينة، عصابية، ثقيلة الظل، تتحاشى مجتمع الرجال، وتعيش في رعب دائم منهم، كنت أراها وهي تنتقل داخل حجرة الفتيات تسير محنية الرأس، تدب بقدمين متباعدتين وكأنها حبلى، والوجه عابس كأنه لا يعرف الابتسام.عبر هذا الوجه...تبدو ثقيلة الحركة، مفتقدة للرشاقة وروح الأنثى، وإذا حدثها رجل، فتتلخص ردود فعلها في حماية جسدها: تنحني لتخفي نهديها ولذلك يندر أن ترى الفتاة العراقية تسير منتصبة القامة، يرعبها أن يبدو نهداها مشرعين للعيون.إن نظرات الرجال وأحاديثهم تتحول عندها إلى نوع من الملامسة، بل محاولة اغتصاب. وعندما تتعمق هذا المظهر تجد وراءه

رغبة الفتاة أن يستباح جسدها. إن الخلوة بالنسبة لها، مع رجل تعني منحه جسدها، ما فعلته سهام في نفس اللحظة التي أغلقت فيها الباب الخارجي. الوجه الثاني، هو الذي ينكشف أمامك حين تشعر المرأة بغياب الرجل العراقي، هنا تحس أن الفتاة تعيش حالة انتعاش، حالة يقظة وكأنها تستيقظ من خدر كان يلازمها، تنفتح روحها أمامك فتجد ذلك المزيج من خفة الظل، والذكاء والمرح، ترافق ذلك جرأة غريبة لا تتوقعها وتصبح الفتاة مستعدة لكل شيء، دون خوف، ودون شعور بالذنب، .... الوجه الثالث، هو وجه الفتاة المتمردة على وضعها الذليل، والتي تملك القدرة على أن تعلن تمردها أمام الجميع، وتجعل الظروف الاجتماعية تخضع لشروطها، إنها التجاوز-١٦٧، ١٦٨، ١٦٩).

وأخيرا، أراد.. ربما.. غالب هلسا أن يصف لحظة دموية ومروعة في تاريخ بغداد..

المدينة..بعد أن انفرد الحزب الحاكم بالسلطة والمصيدة (لم تكن غيومًا تلك التي حجبت نور الشمس، بل لون أسود، كان مجرد لون أسود، انبثق من قلب النخيل الذي يشكل الجزء الأرضي من الأفق، وأخذ ينتشر في السماء بسرعة مخيفة، زحف السواد من كل جزء من محيط دائرة الأفق إلى المركز، احتجبت الشمس، بعد دقيقة أو أكثر قليلاً هبطت على المدينة ظلمة ككابوس خانق، كثيفة عدوانية، شاملة، لا

وجود لضوء من أي نوع في قلبها، عجزت حتى عن رؤية يدي، ظلمـة كانت كالعمى المفاجئ(٢١٨).

هل كانت فعلاً(كالعمى المفاجئ) أم..كالعمى التدريجي؟!

حنان الشيخ

إن رواية اللبنانية حنان الشيخ..(إنها لندن يا عزيزي)، الصادرة عن دار الآداب بيروت، والتي تقع في ٤٠٨ صفحة من القطع المتوسط.. عمل جميل جدًا.. متناغم بالرغم من الانتقادات التي وجهت إليه من هنا وهناك. وأهمية هذا العمل تكمن في أن مؤلفته الروائية اللبنانية المميزة، حنان الشيخ. والتي انتشرت في الغرب أكثر بكثير من انتشارها العربي، وحققت ما لم يحققه الكثير من الأدباء العرب.

وإذا أردنا اختصار العمل في كلمة أو جملة، فلا يمكن أن يكون غير العنوان التالي(أزمة الحرية).. التي يعاني منها العرب المهاجرون إلى دول الغرب الأوربية.وما يهمنا طبعًا هو كون البطلة الرئيسية في هذا العمل هي العراقية (لميس).. التي تلقي بظلها الخفيف على العمل كله.تلك العراقية القادمة من وطن ممزق، لا يملك حتى مقومات الوجود الأساسية التي يحتاجها أي وطن!

تبدأ أحداث الرواية داخل طائرة عائدة من دبي إلى لندن.. وهنا تصور لنا الشيخ بطلتها ـ لميس ـ ومدى الهلع الذي امتلكها بسبب

فقدان جواز سفرها البريطاني، وتصور لنا أهميته القصوى بالنسبة لها.. (داخل لميس يغلي من الرعب.. جواز سفرها الغالي ما زال مفقودًا، رغم أن المضيفة أعلنت فقدانه أكثر من مرة. بعد لحظات عاد نيكولاس يسلم لميس جواز سفرها بعد أن لمحه على الأرض تحت المقعد قبالته. تشكره وكأنه قد أعاد إليها حياتها-٧). إن جواز سفرها ليس عراقيًا، فالمعروف أن العراقيين ما أن يصلوا إلى أرض المهجر، حتى يمزقوا رمز الهوية- جواز السفر- حتى يتسنى لهم البقاء في دول المنافي.. وما أكثر الجوازات والهويات الممزقة والمرمية في دورات المياه في تلك الدول!

ليس هذا وحسب، فالعراقية هنا تكن كل الحب والتقدير والعرفان لوطنها الجديد (بريطانيا).. يدل بوضوح مدى التنافر الذي يصل إلى حد الرعب بينها وبين وطنها القديم (العراق)... (فتبكي أكثر إلى أن تتوقف فجأة وتنهض وكأنها انتهت من واجب ما.تخر على الأرض تريد أن تقبلها، كما أضمرت أن تفعل ما أن تصل إلى لندن، تمامًا كما يفعل العائدون المبعدون عن بيوتهم وعن بلادهم قسرا-١٥).

تبدو لميس في البداية خارجة للتو من محنة طلاقها.. شخصية قلقة ومترددة، غير قادرة على اتخاذ قرار حاسم بشأن مستقبلها..حياتها ما بعد الطلاق..أزمة الحرية الهابطة عليها فجاءة، الخارجة توًا من أجواء البيت العراقي الحميم، الكثيف بتفاصيله، الحاد بحدوده، المقيد للحرية.. إنه السجن الذي حبست فيه لميس بمجرد قدومها إلى لندن للزواج من رجل عراقي ميسور الحال، ولمدة ١٣ سنة. وكانت حماتها

هي حارسة بوابة بيت الزوجية والتي تقضّ مضجعها، وخيالها لا يفارق لميس حتى بعد الطلاق!.. هذا الموروث الثقيل يجعلها غير قادرة على التعامل الناضج والمفيد للحرية التي فتحت لها ذراعيها. فقد اعتادت لميس على الاتكالية، وهي صفة تكاد تكون ملازمة ومن مقومات الشخصية العراقية النسوية.

فالمرأة العراقية، يكون هاجسها الأول والأخير، هو البحث المحموم والهستيري عن ظل رجل تستند عليه-أب أو أخ أو زوج أو ابن).. وهي تجسد بشكل رائع المثل الشعبي المصري المعبر(ضل راجل ولا ضل حيطة!).. فبالرغم من طلاقها وبالرغم من أنها تعيش في مدينة تتنفس الحرية مع الهواء..وكون أن طلاقها ناتج عن رغبة منها.. إلا أنها تظل قاصرة وتعاملها غير ناضج مع الحرية الهابطة عليها، ربما يكون من خلال الكبت الطويل الذي عاناه العراقيون عمومًا وخصوصًا منهم النساء، وحرمانهم من الحرية وكيفية التعامل الناضج معها.. (تهرع إلى التليفون، تدير رقم بلقيس وتتوقف عن إدارة الرقم الأخير.. ألا تزال بلقيس صديقة لها؟ أصدقاء الزوجين المطلقين يصبحون ككرة قدم لا تعرف في أي شباك فريق سوف تدخل وترسو. عليها أن تتصل بزوجها مباشرة لتخبره أنها ستعود إلى البيت.. تدير رقم هاتفه النقال، ثم تتوقف قبل الضغط على الرقم الأخير-٢٠). إنها تحاول أن تجلد ذاتها وتؤنبها على حريتها التي لا تعرف استغلالها، علمًا أن جلد الذات وتأنيبها إرث عراقي مميز منذ مقتل الإمام الحسين.. (تذّكر نفسها بوجه

حماتها المؤنب، المنتقد، وجملتها التي كانت لا تثير في نفس لميس سوى الصراخ"لا تكثري من المشاوير، لديك واجبات زوجية في الليل"-٢٠).

تدرك تماما أن الماضي بكل أطيافه وعلاقاته وجذوره الضاربة عمقًا في تكوينها النفسي، يكبلها ويبعد عنها ذراع الحرية التي تحلم بها.. (لكن لميس تشعر أن تحقيق هذا الخاطر كبعد الشمس عن الأرض. بعد نيلها الطلاق لم تركض في البارك حافية ، لم تصح"أنا حرة، أنا حرة" كما كانت تعد نفسها، بل جلست في غرفة الفندق تواجه قنينة شمبانيا في السطل، تراقب الثلج وهو يذوب، ووجها على يدها، تفكر في صديق والدها الذي قبض عليه في مطار أثينا بسبب قطعة حشيش وحين أفرج عنه بعد أشهر تحسر على روتين السجن والجلوس مع أحد المساجين تحت شجرة التين يلعبان الشطرنج-٢١).ليس هذا فحسب، فهناك نقطة ضعف كبيرة.. ابنها!.. الذي تركته في رعاية أبيه، ومن خلال هذه النقطة، يحاول أصدقاؤها وأقرباؤها، وخصوصًا أمها، النفوذ من خلالها إلى عقلها ودفعها للعودة عن قرارها بشأن الطلاق وبالتالي امتلاك حريتها.. فالمرأة العراقية قدرها دائمًا أن تكون خاضعة لمزاجية الزوج، وعملية الزواج في العراق تتم في الأغلب الأعم على طريقة اختيار البطيخ الأحمر!..بمعنى أنت وحظك!.. إما أن تكون حمراء وحلوة..أو تالفة!.. وعندها لا تجد المرأة مهما تلفتت طلبًا للنجدة، من أولئك الذين كانوا متحمسين لزواجها، سوى كلمة واحدة قدرية تتردد على جميع الألسن... قسمة!

ها هي لميس تتلقى عبر خطوط الهاتف، صوت أمها وهي تحاول خلخلة وضعها النفسي، والضغط على نقطة ضعفها.. (وماذا عن خالد، هل أنت بلا قلب؟.. أم أنك نسيت أنه كان يعيش في بطنك؟.. على كلٍ.. كان عليك أن تحولي حياته إلى جحيم حتى يستجير منك ويطلب هو الطلاق.. أو.. تجعليه يقع في حب سواك، حتى لو وجدت له امرأة بنفسك. لماذا لا تلعبين الألاعيب؟ هل تعرفين، يا بلهاء أن طلبك الطلاق قد سحب من بين يديك رغيف الخبز نفسه؟ كأنك رميت كل أملاكه: البنايتين في لبنان، والشقتين في لندن، وكل الثراء في البالوعة. لكن اسمعيني جيدًا.أنت الآن تملكين جواز سفر بريطانيًا، هذا سيخول لك إقامة دعوى عليه لدى المحاكم والمطالبة بنصف ثروته..ونيل حضانة ابنك-٢٢).

ذكرياتها في العراق.. زوجها.. ابنها.. أمها.. حماتها.. كل هؤلاء يشدون بها إلى الوراء.. لكن ماذا عن الجانب الآخر.. المجتمع البريطاني، هل كان فاتحًا لها ذراعيه، أم أنه اكتفى بتوفير حرية اتخاذ قرار الحرية - التي اتخذته- لها؟.. ليس هذا فحسب، فها هي تشعر بالدونية وتشعر بالنقص لأنها لا تنتمي إلى العرق البريطاني بالرغم من حصولها على أوراق ثبوتية تعلن ذلك!.. تلاحقها النظرة المسبقة السلبية التي يحملها البريطانيون تجاه عموم المجتمعات الشرقية، والمرأة فيها بشكل خاص، وهي نظرة سلبية بالكامل. فها هي تتحدث عن معلمة ابنها البريطانية.. (لكن المعلمة لم تمنحني فرصة واحدة لأظهر أني عكس ما كانت تتصورني: طفيلية، كسولة كالباقيات- ٢٣).. تقوم لميس بجردة حساب بسيطة، بعد سنين طويلة من العيش في

لندن، تكتشف فجأة، كم هي معزولـة، أو منعزلـة، عـن مجتمعهـا البريطـاني الجديـد..، تصرخ..(مـن. مـن؟ هـل معقـول أننـا لا نعـرف إنكليـز غـير الأطباء؟ -٢٧).. وهذه مشـكلة كبـيرة تضـع الكثـير مـن الجاليـات العربيـة عمومًا والعراقية منها خصوصًـا نفسـها فيهـا في مجتمعـاتهم الجديـدة.. إنهـم يعملون مع بعضهم الـبعض، يجلسـون في نفـس المقـاهي، يـأكلون في نفـس المطاعم ونفس الأكـلات الشرقيـة، يقـرؤون الصـحف العربيـة ويشـاهدون الفضائيات العربية.. أطبـائهم.. حلاقـيهم.. زيجـاتهم.. يتخـاطبون بالعربيـة ويمارسون الجنس بنفس العقلية!.. لهذا نجد أن الكثيرين مـنهم بـالرغم مـن عيشهم الطويل في بلدان الغربة، لا يسـتطيعون التـأقلم معهـا أو عـلى الأقـل احترام طريقة عيش أهل البلد!.. يعزلون أنفسـهم في غيتـوات خاصـة بهـم، يتجاهلون نداءات الطرف الآخر بالانـدماج، بـل يعتـبرون تلـك الـدعوات (مؤامرات) لتـذويب هـويتهم الأصـلية..وإذا سـألت أحـدهم عـن سـبب هجرته أصلاً إذا كان متمسكًا لهذه الدرجة بهويتـه ولا يريـد التفـريط بهـا؟.. يحير الجواب ويبدأ بالمراوغة..لكن لميس على العكس من ذلك، فهي كانت قد كفرت بمجتمعها القديم، راغبة في الاندماج، لكنها تواجه مشـكلة مـن نـوع آخر..أو مشاكل (الأطباء الإنكليز هم وحدهم الذين تحتـك أجسـامنا بهـم، ونكّون علاقـة خاصـة بيننـا وبيـنهم-٢٨).. لـميس لا تيـأس، تحـاول نـبش الذاكرة، فتجد فيها رغبة قديمة تواقة للانطلاق في عوالم أكثر رحابة من تلـك التي عاشتها.. (كان امتعاضها من حياتها يزداد كلما أخذت ذبذبات من عوالم أخرى تختارها وتلازمها، وهي عائدة من حضور الأفلام والأوبـرا والمسرح، لتستأنس وإن ببقية التذكرة المطمورة في جيب الجاكت أو شـنطة يـدها. هـذه النشاطات كانت تجعلهـا تتحمـل وجـود حماتهـا وأصـدقاء زوجهـا ورائحـة

السيجار ووقع ورق اللعب على الطاولة وبقايا الطعام أينما كان-٣٠).. لكن الماضي يظل يخيفها بظلاله وشخوصه.. (لم تجرؤ على الخروج من الشقة، فحماتها وزوجها السابق أغلقا باب لندن في وجهها-٣٥).

ولمحاولة فهم شخصية البطلة العراقية المتذبذبة.. نقرأ هذا الحوار البليغ بينها وبين المعلمة الإنكليزية التي قصدتها لإتقان اللهجة الإنكليزية..(- إذن، تريدين إتقان اللهجة الإنكليزية.

- نعم.
- هل لي أن أسألك عن السبب؟
- أريد أن أعيش في لندن.
- متى قدمت؟
- منذ ثلاثة عشر عامًا. لم أكن أشعر أني أعيش في لندن. كنت في بيئة عربية صرفة.
- لذلك أريد أن أعرف لماذا بعد ١٣ سنة قررت فجأة اكتساب لهجة إنكليزية صرفة؟ ولماذا اخترت إنكلترا لتعيشي فيها، لا أي بلد آخر؟
- جئت إلى لندن لأتزوج من عراقي كان يعيش هنا، وأنا الآن مطلقة، ولي ولد منه.لقد قررت أن أندمج في هذا المجتمع وأصبح واحدة منه. أعتقد أن إجادتي للهجة إنكليزية صرفة سوف تساعدني على ذلك.
- بمعنى آخر، لقد اتخذت إنكلترا كبلد ثانٍ لك.
- لا.كبلد أول، لقد تركت العراق وأنا في الثانية عشرة من عمري.ولا أعتقد أني سأعود إلى العيش فيه-٨١)

إنها راغبة في الاندماج.. لكن هل الرغبة وحدها كافية للقضاء على كل ما تحمله من خوف وعدم ثقة بالنفس وشعورها بالضآلة لتحقيق ذلك.. (في النجف كان التلصص ضروريًا عبر فتحات النوافذ المغلقة، ولذلك كانت طاقة الحمام عالية.كان التلصص في الاحتفالات الدينية يبلغ ذروته.. عبر مناديل النساء السوداء، وعبر الدماء التي تملأ وجوه الشباب وهم يضربون بالسيوف رؤوسهم منادين: "حيدر، حيدر، حيدر، العباس، العباس"هل يخطر لهذه المرأة الأجنبية، التي ترتب ملابس طفلها الآن، أن هناك مدينة اسمها النجف؟-٨٣).. هناك في تلك المدن التي تجهل الأجنبية أسماءها.. هناك حيث المرأة لا قيمة لها.. سلعة.. هدف دائم للمتعة.. آلة إنجاب، وذبيحة على محراب الشرف الرفيع!

كان عليها أن تتخلص من كل هذا الإرث الدموي والثقيل.. وهي التي اعتقدت أنها بمجرد طلاقها ستحصل على الحرية وما يترتب عليها من أحلام جميلة!

الماضي يحاول أن يوصد أبواب لندن أمامها، ممثلاً بزوجها وأمه.. حتى بلقيس صديقتها، تحاول أن تعود بها إلى الماضي، الذي كرهته وتركته طوعًا.فبلقيس لا تتخيل أن تعيش صديقتها ميس وحيدة في هذه المدينة الكبيرة، بدون رجل! فهذا شيء مرعب بكل القياسات العراقية.. (وكانت بلقيس كالأخريات، دجاجة تنقر الأرض وهي تولول"حرام أن تطلقي حرام-٨٨).. (كيف يهون على بلقيس انتظاري ٤٥ دقيقة. إنها غاية في الوفاء، كريمة. هذا كل ما في الأمر، وأنا عليّ أن أخجل من تصرفي، عليّ أن

أتقدم وأعانقها. لكن ها أنا أهرب.أنـا خائفـة مـن أني إذا نظـرت إلى بلقـيس رأيت زوجها يختبئ خلف تسريحة شـعرها يؤنبهـا لأنهـا مـا زالـت تتحـدث معي-٨٩). كيف تقـيم لمـيس زوجهـا؟.. العراقـي الـذي يعـيش في لنـدن، المهاجر أو المنفـي.. أو الهـارب.. لا نعـرف!.. كـل الـذي يمكـن جمعـه مـن معلومات حوله، يتلخص في كلمـة واحـدة..ا لتفاهـة!.. (لقـد جربـت كـل شيء..وجمعت ثروة وها أنا في الخمسـين من عمري..لم يعد هنــاك شيء أفعله سوى امتهاني السياسة-٨٩).

أما هي فقد اتخذت قرارها وأصرت عليه.. الفراق، لهـذا تبـدو الآن أنها مستعدة لتحمل كل النتائج المترتبة على هذا القرار الخطير!.. (تخرج لميس خفيفة. زال عنها تمامًا تأنيب الضـمير إزاء بلقـيس، لـن تعـود إلى حياتها الأولى ولو للحظة واحدة، تفرح لأنها مطلقة.. تـدخل المكتبـة-٩٣).

إن المؤلفة، حنان الشيخ، لم تشأ أن تترك بطلتها العراقيـة-لمـيس- في المتاهة كثيرًا راحت تنسج لها بكثير من العناية والتروي. .قصـة حـب.. مع الجانب الذي تتوق لميس إليه والذوبان فيه.إنـه المجتمـع البريطـاني، ومع رجل إنكليزي..نيقـولاس.. وحتـى لا تبقـى علاقتهـا بـالإنكليز محصورة فقط في الأطباء!.. إن نيقولاس، تـاجر وخبـير تحـف شرقيـة، العربية منها خصوصًا، يعمل مع شريك من سلطنة عمان.. (حيث كـان نيقولاس يقود السيارة، راقبت لميس نفسها باستغراب متسـائلة، كيـف في لحظات معـدودة انـزاح عنها ضياعها ووحـدتها؟.. يبـدو كـل شيء بعيـدًا وغـير مهـم الطـلاق، الصـناديق المكومـة في الشـقة، اللهجـة

الإنكليزية، الشقة المهجورة، البحث عن عمل، كأن كل ما أرادته هو رجل، يقبلها كما قبلها نيقولاس في ليل لندن-٩٦)

تمتزج لندن المدينة بشخصية نيقولاس.. يصبحان معنى واحدًا في حياة لميس.. (كانت لندن بعد السينما تنتظر إشارة من لميس حتى تفك أزرار فستانها وتقف أمامها عارية، ولميس تنتظر إشارة من نيقولاس حتى تفك سحاب بنطلونها وتقف أمامه عارية، الأشجار والبيوت والبنايات تصبح فجأة لندن، هي مع إنكليزي وكل ما حولها أليف ومصدر طمأنينة-١٤٢). تساعدها هذه العلاقة على تفكيك خيوط حياتها الماضية المعقدة، وتبدأ تنظر إلى الحياة والأمور المتعلقة بها من منظار جديد مدهش.. (لقد أجبرت على الزواج من رجل بضعف عمري-١٤٧).. ليس على المستوى الشخصي فقط، بل حتى بما يتعلق بذاك الوطن البعيد الغامض المخيف الذي كان..(إذ العودة إلى العراق بدت مستحيلة، كالعودة إلى الموت نفسه-١٤٨)..بل مع كل ما هو عراقي..(تمر على العراقيين بنظرة فقط، تمامًا كما يفعل السائحون والإنكليز قبل أن تحط أنظارهم على شيء آخر..كأنها لم تكن منهم-١٧٧).. كما يتشكل لديها وعي سياسي آخر، فهي لم تعد كما في السابق تكتفي بإلقاء نظرة على الحياة دون أن تشارك فيها.. لقد أزاحت علاقتها الجديدة بالإنكليزي الكثير من الضباب الذي كان يغلف عقلها وروحها.. تعود بها الذكريات إلى حياتها الزوجية، وتكتشف الآن كم هو تافه هذا الزواج وهذا الزوج، كما تقر أيضًا وضمنًا بتفاهة المشهد

السياسي العراقي المعارض في لندن.. (كان صالون بيت لميس يتحول كل صباح إلى مركز لاستقبال الرجال، حيث تدار عليهم علب السجائر من خمسين صنفًا، وهم يسبحون بمسابحهم التي كانت تصدر عنها طقطقة كضحكاتهم، يعيدون ما كتبته الجرائد عن الأخبار العراقية وقصص صدام حسين وأخبار الحركات السياسية، زوجها يبدو في أفضل بذلة، وأفضل كرفات، يجلس فوق الكنبة الوثيرة فيغوص فيها، ساعة معصمه تلمع كالتماع بعض أسنان الزائرين الذهبية، يجلسون جميعًا ولسانهم هو المقارنة.. (هذا مليونير ، هذا كان مليونيرًا، هذا ابن وزير سابق، هذه عائلة السفراء، هم أبناء العائلات العريقة، هم أبناء العائلات الثرية، يريدون سحب العراق من صدام حسين-١٧٩).

حتى علاقتها بأمها خضعت للمراجعة، والتي كانت تقول لها.. (كانت أمها توصيها "على زوجك أن يرى الفراش أمامه كلما رآك-١٩٧).. إنها لم تعد ببساطة ذاك الفراش البليد المغري!. لكن حنان الشيخ لم تترك لميس بهدوء لذيذ مستسلمة لهذه العلاقة الجميلة الطارئة على حياتها، فهي تنقل لنا بذكاء، صدام ثقافتين.. شرق وغرب. .فأحيانًا النيات الطيبة وحدها لا تكفي لبناء حوار ناضج وموحد بين النقيضين، وهذا ما تكتشفه لميس، حتى بعد أن قطعت شوطًا كبيرًا باتجاه الآخر الأوربي.. (أخذ أصدقاء نيقولاس ومعارفه في القدوم، تشعر بأنها تدب على الأرض بدلاً من أن تسير، تصدر منها أصوات كالأطفال..تستجمع حضورها. تصاب بالفشل، أحاديثهم تدور في

فلك لا تعرفه.. فلك إنكليزي محض، لا تستطيع أن تجامل به أو تنافق أو تخترع. يدور حول السياسة المحلية والقوانين...... وجدت نفسها تلوم نيقولاس. كانت كدودة القز التي غزلت شرنقتها بكل تأن وسعادة، تعد نفسها للطيران، لكن نيقولاس أخرجها قبل أوانها-٢٢٤).... (وجدت نفسها تتمنى فجأة لو أنها أوروبية -٢٣٢). لكن رحلتها التي بدأتها بقرار شجاع لا مجال فيه للتراجع أو العودة، حتى بعد اختفاء نيقولاس، لم تتوقف وقررت أن تعيش في لندن!.. (رأت نفسها تجمع كل شجاعتها وتدخل دكان بيع الأزهار وتسأل عن وظيفة-٣٩٥).. (ما كان يهم لميس هو الشعور بالانتماء إلى إنكلترا، وبعده سياسة من تنتخبه-٣٩٠).

مرة أخرى صورة العراقي أو العراقية في المنفى.. يبدو أنها صورة أثيرة لدى الكتاب العرب عن العراقيين!.. لكن لميس في النهاية لم تكن شخصية رومانسية أو خبيثة..أو معقدة..إنها ببساطة امرأة باحثة عن حريتها، وبالتالي سعادتها، تبدو خائفة ومترددة، لكنها تحمل قدرًا كبيرًا من الإصرار، يساعدها على إنجاز ما أرادت هي وليس ما يقرره لها الآخرون، أو ليس ما تريده الذاكرة العراقية أن تراه!

زهدي الداوودي

إن ثنائية (أطول عام وزمن الهروب) هي للروائي العراقي الكردي، زهدي الداوودي. (أطول عام) طبعت عام ١٩٩٤ عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - أما (زمن الهروب) فالطبعة الأولى صدرت عام ١٩٩٨ وأيضا عن نفس الدار. مجموع صفحات الروايتين، ٨٣٠ صفحة، وهما بكل القياسات عمل ضخم وجميل.. وما جذبني لاختيار هذا العمل الضخم، أولاً لأن المؤلف كردي، ولابد باعتقادي أن من المهم التعرف على رأي الآخر-الكردي- المقيم معنا في نفس البلد أو لنسمها البقعة الجغرافية المسماة بالعراق!.. فهذا البلد وكما لا يخفى على الكل، مبتلى بالحروب والكوارث وموعود بالتمزق العرقي والطائفي. والأكراد دائما يعتبرون أنفسهم خارج المعادلة العراقية- العربية، ويمكن تعريفهم ببساطة إذا جاز لي (أكراد يعيشون في العراق ويأملون بالانفصال!) ولا أعرف لماذا لم يتحقق حلمهم أو يحقق لهم الانفصال؟.. بل لعلهم لا يريدون ذلك بالفعل، فالحلم أجمل بكثير من تحويله إلى واقع!.. واستكمالاً لإنضاج صورة العراقي ونموذجها في

الأدب العربي، أعتقد أن من المهم أيضا أن نأخذ مثالاً من شركائنا في الوطن المفترض!.. فمنذ مئات السنين ونحن نتجاور ونحمل نفس الهويات الشخصية ونتخرج من نفس الجامعات ونأكل في نفس المطاعم، ونعبد نفس الإله.. نخضع لنفس القوانين.. ونهرب إلى نفس المنافي، لكننا في النهاية عالمان منفصلان لم يعرفا الاندماج والانصهار.. فالآمال مختلفة والآلام هي غيرها، وطرق تحقيق الأهداف مختلفة، ناهيك عن اللغة..شعبان مختلفان يجمعهما وطن واحد وحدود واحدة!.. هكذا شاء الإنكليز والفرنسيون عندما اقتسموا تركة الإمبراطورية العثمانية (تركيا). وربما شاء الأمريكان في حال قيامهم بتقسيم جديد في المنطقة، وإعادة تنظيم أحجار الدومينو!

اعتقادي الشخصي أن الأكراد يسعون بكل ما يملكون من قوة للانفصال، لكن ينقصهم تنظيم أنفسهم وإن طال الزمن. لهذا رأيت أن من المهم أن نأخذ نموذجًا (روائيًا) لكاتب كردي(عراقي)، خصوصًا وأن الجزء الثاني من العمل (زمن الهروب) قد تم تدوين عبارة صغيرة على الكتاب لتعريفه وبخط صغير (رواية عربية)!.. لا أعرف لماذا تم تدوين هذه العبارة ولا فكرة من كانت!.. لكن من الواضح جدًا أن الرواية لا علاقة لها بالعرب إطلاقًا، صحيح أنها كتبت بالعربية، لكنها تتحدث عن شيء آخر غير العرب.. إنها تتحدث عن شعب منسي، أو مدفوع بقوة نحو النسيان، على هذه الخارطة الهلامية التي يطلق عليها الوطن العربي.. عن شعب ليس عربيًا، متهم دائمًا بالتآمر والانفصالية

والتحالف مع أعداء الأمة!.. وهذه كما لا يخفى شعارات من بقايا التيار القومي الذي اجتاح العراق كما الكثير من الدول العربية.. فعبارة (رواية عربية) الصغيرة الخجولة، أشبه بتعريف مضحك لكل من يفرغ من قراءتها.

الحقيقة أنها رواية جميلة تتحدث عن عادات وتقاليد وطريقة تفكير هؤلاء الناس وطرق عيشهم، والذين أقاموا عالمهم الخاص بهم، فيها الكثير من المفردات والأسماء والمناطق بها لا تمت إلى أي صلة بالعرب، سوى اشتراكهم معًا في ديانة توحيدية كبرى هي الإسلام.هناك الكثير من الأدب الكردي، لكنه إما باللغة الكردية التي لا أتقنها، وإما أنها لا ترتقي لما يسمى بالعمل الأدبي المتوازن.. أما هذه الرواية الملحمية بجزأيها، فهي شيء آخر.. جميل، سلس، ناضح بالحيوية، كما أنها تخلو من اللغة العنصرية الشوفينية وإنكار الآخر. بالرغم من أن المؤلف قد أنكر وجود الآخر العربي وأرادها رواية كردية خالصة وليست عراقية أو عربية كما في تلك العبارة الغريبة، لكن بلغة أدبية رفيعة تسمو فوق الحزازات العرقية.

الأكراد لم يمنحوا ولاءهم لأي دولة أو سلطة، سواء كانوا أتراكًا أو فرسًا أو إنكليز أو عربا.. والسلطة وإن كانت تمثل لهم ولحد الآن، الغرباء الأعداء!. .وهذا المقطع من الرواية يصف انعزالية الأكراد وخوفهم وعداءهم للآخر أيًا كان!.. (بابا، ثلاثة فرسان غرباء يتجهون إلى القرية.. اثنان منهم يرتديان ملابس الجند رمة "قال رمضان وقد

ارتسمت على وجهه علائم الوجل"لا أهلاً بهم ولا مرحبًا، علق ميرزا منفعلا وهو يقوم من مكانه "لن نتخلص منهم حتى لو ذهبنا إلى آخر الدنيا"-١٨، أطول عام).. صحيح أن الحديث يدور هنا أثناء احتلال العثمانيين للعراق وبضمنه المناطق الكردية، لكن وبعد رحيل هؤلاء بأعوام طويلة وتبدل الكثير من الحكومات في العراق، بقي نفس الهاجس العدائي تجاه الدولة (غير الكردية)ولم يتبدل.فالدولة ، أيًا كانت بالنسبة لهم، تريد أموالاً لطعامها، ثم رجالاً لحروبها.. (قال الشيخ زوراب وهو يهبط السلم بخفة" إن وجود اليوزباشي معهم علامة سيئة، لا شك أنهم جاءوا يريدون رجالاً-١٠، أطول عام)..وفي مكان آخر (يا مولانا العزيز، إن أبواب وادي كفران مفتوحة للجميع، سواء أكانوا غجرًا أو دراويش أم عابري سبيل أو أصدقاء وحتى أعداؤنا إذا طلبوا منا الصفح والتجاؤوا إلينا، فعلى الرحب والسعة، وأما أن الكلام ضد السلطان هو كفر وإلحاد وأن الأحاجيين هم الزنادقة. فهذه كلها أمور لا تهمني أنا، إنهم كلهم بالنسبة لي سلطة ودولة، وإذا كنت تعتقد أن اليوزباشي يستطيع إقناعنا بوضعنا في خانة الأحاجيين، فأنت متوهم، إن السلطة هي السلطة وسنظل إلى الأبد على طرفي نقيض منها، إنها إذا أعفتنا فعلاً هذه السنة من الضرائب فإنها ستعوضها في السنوات القادمة، وإلا كيف تستطيع أن تعيش؟-٣٤٩، أطول عام).

وبقيت لعبة القط والفار بين الأكراد والسلطة، مستمرة لحد يومنا هذا(وحتى بعد أن أصبح رئيس الجمهورية العراقية كرديا!)..

عندما دخل العراق في حرب مدمرة مع إيران إبان الثمانينيات من العقد المنصرم (اختفى) رجال كردستان ولم يخدموا مع وحدات الجيش العراقي، أسوة بالعرب من رجال العراق، بل كانوا ضمن أفواج شكلتها الدولة خصيصًا لهم، لا يخرجون فيها من مناطقهم وقراهم، وارتبطوا اسميا بالجيش العراقي، حفاظًا على هيبة الدولة وتجنبًا لتمردهم إذا ما ساقتهم فعلاً إلى الحرب المشتعلة على الحدود!.. لقد استمروا في إخفاء (الأموال والرجال) عن أعين الدولة المركزية، التي كانوا ينظرون إليها بازدراء وعدم اعتراف بها.. وكان قانونهم هو.. (يا بني مر على القرى ولا تستعجل،فبينهم وبيننا مسافة غير قصيرة، فقط النساء والأطفال يبقون أما الرجال وكل الأولاد الذين تجاوزوا الرابعة عشرة فيتركون القرى، ولا يرجع أحد إلى القرية إلا بعد أن يسود الظلام، هل فهمت؟-٨٥، أطول عام).. إن هذه الوصية الصادرة عن الشيخ زوراب، رأس العشيرة، بقيت سارية المفعول لحد الآن، في أثناء الحرب العراقية الإيرانية. أتيحت لي الفرصة بأن أتوغل إلى أقاصي الأماكن الكردية، والتجوال فيها، ولم أكن أرى سوى(النساء والأطفال) تمامًا كوصايا الشيخ زوراب الأزلية!.. إن صلة الوصل التي تربط الأكراد بالعالم هي عبارة عن عنف متبادل وأزمة ثقة كبيرة، ولا وجود نهائيًا لشيء اسمه الحوار في قاموسهم، وأخيرًا الحروب الدموية التي فرضوها على الآخرين أو تلك التي فرضت عليهم.. ومن ضمنها الحرب التي خاضها العراق العربي ضد العراق الكردي، ثم الكراهية

التي تجاوزت حدود المعقول ووصلت إلى حد تمني إبادة الآخر كليًا ونهائيًا!.. وما أحداث حلبجة التي تصدرت الأخبار في العالم كله لتكون بدون جذور أبدًا. (لكن عندما نشر اليوزباشي على الأرض الأوراق التي أخرجها من حقيبته، توقف زوراب عن التفكير واعتراه خوف، إذ أن إبراز أي ورقة يعني مصادرة رجال وأموال العشيرة: قال بلا إرادة منه محاولاً بذلك تأجيل هذا الموضوع "جناب اليوزباشي" أعتقد أن الأكل جاهز فلنترك وجع الرأس هذا إلى ما بعد الأكل-١٤، أطول عام).

وطبيعي أن يحاول الأكراد أن ينفوا أي علاقة بالعرب، ويبقوا صلة الوصل الوحيدة بينهم، والتي تحظي باحترامهم، هو الدين.. فالعرب هم الذين أدخلوا الدين الإسلامي إلى مجاهل الجبال الكردية ونشروه بينهم، وهؤلاء تلقفوه بدون مقاومة، بل أصبحوا من أشد المتحمسين إليه، فاقترن اسم الأكراد بالتكايا الصوفية وحلقات الذكر النبوي والدراويش.. (يأتي عدد كبير من الدراويش ذوي الشعور واللحى الطويلة ويبدؤن بضرب الدفوف والرقص على أنغامها بحركات منتظمة ما تلبث أن تتحول إلى هستيريا وجنون، وهم يلوحون بسيوفهم وخناجرهم في الهواء ويرددون بصوت واحد ومتناغم"لا إله إلا الله، لا إله إلا الله".. وعندما كانت الحركات تشتد أكثر فأكثر يقفون في أماكنهم فجأة ويبدؤون بهز رؤوسهم يمنة ويسرة وهم يرددون بسرعة "الله حي، الله حي" وبعد ذلك تبدأ المعجزات الخارقة:

الجلوس بمؤخرة عارية على صاج حامٍ، ضرب البطون بالخناجر، مسك الجمر باليد ووضعه في الفم-٥٦، أطول عام).. وبفعل تمسك الأكراد الشديد ببيئتهم الوعرة والمنعزلة طبيعيًا عن بقية الحضارات المحيطة بهم، تولد لديهم نوع الأدب الأسطوري المحكي غير الموثق والذي يعتمد أساسًا على المبالغات وعالم الغيبيات وإقصاء العلمية.. بل إن الدين الإسلامي بالنسبة لهم كان الغطاء الذي أحكم على أساطيرهم بغطاء محكم، بعد أن نجحوا بنقلها إلى جسد الفلسفة الإسلامية.. وأصبحت عاداتهم القديمة الوثنية ترتدي حلة إسلامية، وعلاقتهم بالعرب تتم عن طريق واحد، هو رجال الدين الذين يحظون عندهم باحترام شديد وخصوصًا أولئك المنحدرين من أصول النبي.

فعندما هرب ثلاثة من الأكراد من الخدمة العسكرية الإلزامية تحت لواء الجندرمة العثمانية ومن ضمنهم الشيخ زوراب -رئيس العشيرة-.. التقوا بأحد هؤلاء الشيوخ أو الدراويش الذين يرتبطون بأصول عرقية مقدسة إلى النبي العربي محمدﷺ، قال لهم خليفته.. (أنتم الثلاثة يا أولادي قد أثبتم خلال فترة وجودكم بيننا بأنكم مخلصون فعلاً. فقد استوحى الشيخ من جده الرسول ﷺ، أنكم تخلون من أي غش، وأنكم بهروبكم من الجيش قد قمتم بعمل يخدم الدين والضمير. لأن هذه الدولة قائمة على الظلم والطغيان-٦٥، أطول عام)

وهنا تلتقي مصلحتان.. التمرد الكردي الطبيعي ضد السلطة والتقدير العالي للإسلام، الذي يبرر عدم جهادهم في الجيش والذي

يرى في السلطة رمز الظلم والانحلال، ويدعو إلى العودة إلى الجذور النقية للإسلام الأول. والعرب يعتبرون أو غيرهم من الأقوام غير الكردية، أن الحل الأخير لمشكلة الأكراد هو خروجهم من تلك العزلة الطبيعية التي فرضتها عليهم الطبيعة والتي يعتبرها الأكراد مقدسة!..فعندما ضربت الكارثة، عائلة الشيخ زوراب رئيس عشيرة وادي كفران، وتعرض ابنه الأثير(كريم) إلى عارض صحي لم تنفع معه طرق علاجهم البدائية.. (استغرب شيخو من أن أخاه كريم لم يتحرك من مكانه، بل كان شاردًا. مأخوذًا ينظر في الفراغ، ويحرك رأسه بين حين وآخر بحركة عصبية، فعرف أنه مصاب بالصرع نتيجة ضربة من الجن-٩٥، أطول عام).. وهنا بعد أن تأكد لهم أن مرض ابنهم كريم أكبر من أن تعالجه الطرق الكردية المتبعة منذ مئات السنين، بدؤوا ينتظرون النجدة من الخارج، خارج محيطهم التقليدي.. (لكن الغجر لم يأتوا بعد، ولا يمكن انتظارهم فهم سيظهرون على الأقل بعد ثلاثة أشهر، فإما أن يذهبوا إلى شيخ البرزنجية أو يذهبوا إلى السيد جواد حفيد النبيﷺ، ودار النقاش الحاد حول أفضلية هذا أو ذاك...... ثم راحوا يقارنون بين كل من الشيخ البر زنجي والسيد العربي، فأجمع الكل بأن السيد له خوارق ومعجزات....... الذي شوهد أكثر من مرة وهو يطير في أعالي السماء وعباءته ترفرف وراءه-٩٨، أطول عام).

حاول الأكراد دائما، ولكي يثبتوا بأنهم قادرون على تكوين دولتهم الخاصة بهم مقارنين أنفسهم بالشعوب المجاورة، رصد النواقص

والتشهير بها، وبالتالي نسب كل ما هو جيد من خصال إليهم، شيء واحد لم يستطيعوا الالتفاف حوله هو نسب النبي العربي ..هنا يتوقفون عن التشهير والمقارنة..(بارك السيد- المقصود هنا السيد العربي- زواج كل من رمضان وميرزا واستبشر لهما ولكل وادي كفران بالخير والبركة، وسر إليهم أنه رأى النبي محمد ﷺ في المنام وهو يمتطي صهوة براقه الذي نشر جناحيه فوق وادي كفران، وراح السيد يغمض عينيه وهو يردد"فأل حسن، فأل حسن"وفي ذلك اليوم تحولت القرية إلى ساحة للفرح الحقيقي-١٣٧، أطول عام).. (وكان أن أقر السيد بأن سبب عدم تلبية الدعوة هو أنه إذا حضر هناك فينبغي عليه أن يقبل يد الشيخ كأي فرد آخر.ولكن بما أنه حفيد النبي، فلا يجوز له تقبيل يد أحد، وعندما قال له مردان، إن الشيخ حفيد الرسول نفي السيد ذلك وقال بسخرية: كلا يا مردان، الشيخ كردي، والحفيد لا يجوز إلا أن يكون عربيًا هاشميًا-١٩٣، زمن الهروب).. وطبعًا كان الكثير من العرب يعرفون نقطة الضعف هذه في الدفاعات الكردية المحصنة، ويستغلونها لصالحهم واختراقهم سواء بالخرافات أو بالحقائق!.. لكن هذا لا يمنح العربي الحق في استفزاز انعزاليتهم وشكوكهم المرضية بالآخرين.فبالرغم من أن حمل السلاح مثلاً، من مقومات الرجولة الناضجة في بلد عشائري قبلي مثل العراق بشقيه العربي والكردي.. إلا أن العربي يرفض بلياقة مغلفة بهالة دينية دعوة كردية له بحمل السلاح، حتى ولو كان هذا العرض من قبل كبار رجالات العشيرة، إلا أنه

يفضل ألا يخرج من إطار هذه الصورة التي تمثل العربي غريبًا.. فيبقى بلا سلاح أفضل له بكثير من حمله.. (وحين أكد الحارس أن القادمين الثلاثة هم من عشيرة البابائيين، مدوا أيديهم بصورة لا إرادية إلى بنادقهم هارعين إلى خارج الخيمة للتأكد بأنفسهم من الأمر، وكان السيد هو الوحيد الذي لا يحمل السلاح في القرية، رغم أنهم عرضوا عليه بندقية، فرفضها شاكرًا، وقائلاً إن سلاحه هو إيمانه وأن حفيد الرسول لا يجوز أن يحمل السلاح-٢١١، أطول عام)..

عموما يبقى العراقي العربي في هذا العمل الروائي الطويل والجميل، هامشيًا تمامًا.. غريبًا.. مشكوكًا بوجوده في مناطق كردستان الجبلية، إلا إذا كان ضيفًا، لأسباب دينية أو اقتصادية، إنه لا يلعب أي دور أساسي في تقرير مصير أي شيء، وأنه في العمل الروائي هذا كان مسئولاً عن أعمال الغيب التي يخشاها الأكراد، لأنهم لا يملكون الصلاحية لهذا العمل والتي احتكرها العرب بحكم أن النبي عربي!.. بل حتى في بغداد.. العاصمة.. أو ما يفترض بأنها عاصمتهم أيضًا، والتي تبدو بعيدة جدًا وضبابية، وعامرة بدور الدعارة، يبقى الأكراد لا يفرقون بين الغرباء.. كل الغرباء.. (حمة غريب يريد أن يعرف ما إذا كان الإنكليز هم عرب أو أتراك؟-٥٤، زمن الهروب).

حيدر حيدر

(وليمة لأعشاب البحر أو نشيد الموت) للكاتب السوري حيدر حيدر. العمل يقع من ٣٧٨ صفحة من القطع المتوسط.انتهى الكاتب من عمله هذا عام ١٩٨٣ وتحت يدنا الطبعة الرابعة والصادرة عام ١٩٩٢ عن (دار أمواج للطباعة والنشر والتوزيع).

لقد نالت هذه الرواية - فجأة - شهرة كبيرة طارت في الآفاق بعد أن تم تحريمها من قبل الإسلاميين في مصر واتهامها بالترويج للإلحاد!.. مع العلم أنها تعتبر من أهم الأعمال الروائية العربية التي تناولت الوضع الدقيق للعراق والعراقيين، بعد صعود التيار القومي بزعامة حزب البعث العربي الاشتراكي العراقي، إن لم تكن من أهمها على الإطلاق!. حيث جمعت هذه الرواية بتناسق جميل ومؤلم بين التوثيق السياسي والجمالية السردية، ويمكن تسميتها بالعمل الأهم الذي وثق نشيد الموت العراقي المترف!كما لم يفعل أي كاتب عراقي!!

بطل العمل هو (مهدي جواد)، عراقي خارج من جحيم الموت الأيديولوجي إلى المنفى الجزائري.أما كيف ينظر كاتب سوري لهذا

البطل، ومن خلفه كورس أصوات نشيد الموت العراقي، فهذا ما سنحاول تلخيصه بجملة.. إنه صراع الموت البشع الدموي الذي لا يعرف الرحمة، بين الشيوعيين والبعثيين العراقيين!..والذين - كلاهما أقصد - أودوا بحياة بلدهم العراق.كان صراعهما السياسي الدموي البربري، بداية النهاية لبلد لم ولن يتعافى من نتيجة هذا الصراع، إنهما يمثلان قطبي الصراع لحلقة جديدة من الموت المجاني..يقول البطل الشيوعي.. (- إما أن نبادر سريعًا أو تفوتنا الفرصة.النظام هش، والجيش يغلي، البعثيون يجهزون قواتهم فإما نحن أو هم.ومن يسبق بالضربة الأولى سيفوز-٢٦٤)..

بهذه العقلية الدموية كانت ولا تزال تدار الحياة السياسية في العراق.. بلا أي حلول وسطية، قاد (سياسيو) العراق البلد ومن خلفهم(مثقفوه) إلى التهلكة، إنها سياسة الإبادة الجماعية وعقلية (الضربة الأولى) التي تعكس مزاجية عراقية هائلة تنحى نحو العنف المفرط الذي لا تحده أي حدود أخلاقية أو إنسانية أو حتى دينية!

كون الكاتب-حيدر حيدر- متعاطفًا مع الحزب الشيوعي العراقي، وبنفس الوقت ناقدًا له، فقد اختار عبر أبطاله العراقيين، أن يورد تفاصيل توثيقية لانهيار الحزب الشيوعي بعد الضربات الشديدة والمميتة التي وجهها لهم البعثيون.. إنه يبحث في كمية الدم السائل وأشلاء الجثث عن سبب الانهيار من خلال شخصيات متعبة وممزقة!.إنه يتكلم هنا عن مرحلة ما بعد انهيار الجبهة واندلاع المواجهات، وليس خلالها، كما قرأنا في كتاب هاديا سعيد (سنوات مع الخوف العراقي). إنها المرحلة الأكثر دموية في تاريخ

العراق الحديث..في هذا المقطع يتحدث عن (مهيار الباهلي) وهو شيوعي عراقي من أنصار الكفاح المسلح، الذي يؤمن بأن الإصلاح ينشأ على جثث الخصوم.. (وكان رجلاً مصابًا بلوثة الحروب، مثقفًا مسحورًا ببلانكي، ومجد الكومونة والإغارة على سانتا كلارا.السلاح.السلاح. من يملكه يملك كلمة الله على الأرض...... ويوم خاض مع خالد أحمد زكي ومجموعة الأهوار حرب العصابات الخاسرة.كان يتوهم أنه يواصل ميراث الخسارات الدامية والأمثولات التي تتراكم لتشكل ذات صباح أو مساء الصرخة التي تختزنها القرون القديمة لتدوي في القرن العشرين أو الثلاثين أو الخمسين. هادمة جدران زمن الاستبداد والجوع والإبادة الجماعية لشعوب قهرت أو استذلت، ثم ما لبثت أن دفنت تحت السطوة الوحشية للخلفاء والأمراء الخلعاء والجنرالات الدمى والأحزاب المستذلة والراكعة-٢١).. من يملك السلاح يملك كلمة الله على الأرض لماذا الكل يحاولون أن يلعبوا دور(الله) في العراق!.. الأقوى هو الأجدر باعتلاء كرسي (العرش) في العراق، الذي لا يسمح بالجلوس عليه إلا للقتلة والمغامرين والمعتوهين!.. قاتل أو مقتول.. إما أن تكون حاكما أو من بقية أفراد الشعب.. ثنائية لا تقبل الجدل في بلد مثل العراق.. إن الشعب العراقي هو صانع قاتليه بامتياز.. رائحة الدم تصيب الجميع بالنشوة القصوى، وبمجرد انبعاثها، تتلاشى كل قيم الأرض من عقولهم..إنه صراع بين أنصار مملكة الدم الأممية وبين أنصار مملكة الدم القومية!

كانت الضربة موجعة ومفاجئة..استفاق الحزب الشيوعي عليها وهو يتحسس جسده المغطى بالدم وينظر برعب إلى بقايا أشلائه المتناثرة.. بدأت الانقسامات، تلتها الخيانات، الاعترافات.. البراءة.. والمقاومة المسلحة..أخيرًا كان الفرار الكبير.

الاتهامات تطال الكل وتتطاير في جميع الاتجاهات.. بـدءًا مـن عبـد الكـريم قاسـم رئـيس أول جمهوريـة في العـراق، الـذي تحـالف مـع الشيوعيين وانتهاءً بالقيادة الهاربة إلى الخارج تاركة القاعدة تتمزق تحت الضربات الوحشية، وانتهاءً بالشعب المتخاذل المتعب الذي يفقد الأبناء المتحاربين إن قتلاً أو سجنًا أو نفيًا

(سيتذكر وهو يخرج من منزلها عـابرًا الأرصـفة والمتـاجر والمقـاهي والبيوت تحت أشجار الدر دار الرطبـة أن ذلـك الأصـيل كـان مكربًـا للنفس لشدة اختلاطا ته من تـداخل الحـب الروحـي مـع الجـنس مـع الوضع السياسي المزري من كل جوانبـه بـدءًا مـن وحشـية الجنـرالات وهمود الشعب، وانتهاءً بتخاذل القيادات الثورية وقطاراتها المتأخرة على سكة خط اللارأسمالي المخربة-١٩٤).. إن الانتقـادات والإدانـة تطـال الكل.. عندما تحالف الحزب مع (الجنرال) عبد الكـريم قاسـم، لم يجـد عندها ضيرًا في هذا التحالف المشبوه، وعندما ارتكب غوغـاء الشـعب باسم الحـزب الشـيوعي العراقـي جـرائم (قطـار السـلام) في الموصـل وكركوك، والتي لا تجد لهـا أثـرًا في هـذا الكتـاب!.. لم يكلـف الحـزب الشيوعي نفسه حق الاعتذار عن الوحشـية المتمثلـة بسـحل الجثـث في الشوارع بالحبال الشهيرة وتعليقها بعد ذلك على أعمدة الكهرباء!.. أما عندما حدثت نفس كمية العنف ضدهم فكان الأمر عنده مختلفًا وطفت (الأخلاق) فجأة على السطح السياسي العراقي، والذي هو أصـلاً بـلا أي أخـلاق كـان ولا يـزال...(كـان التأنيـب العميـق ينحـو إلى

التبرئة.فالهجوم على المحور الرئيسي كان يشير إلى قيادة الحزب اليمينية والمتواطئة والتي راهنت على انقلاب ١٤ تموز والزعيم الأوحد والتطور الرأسمالي.غير أن الأمر كان يتجاوز ذلك.وعلى مدى عام كانت محصلة الحوار أكثر خطورة، وأعمق دلالة من هذا الذي طفا أخيرًا على السطح.فأطاح بحزب كان يحرك مئات الآلاف في اللحظات الحرجة.والذي تأبى أكثر من مرة من خلال النزوع الأخلاقي للسياسة.أن يستولي على السلطة، النزوع الأخلاقي، أوه يا للكلمة الرءوفة والساخرة! أبدًا. بل بقسوة:هو الجبن وشلل الإرادة الذاتية والخط الأعرج. ويوم كان الانقسام على أشده والحزب يعبر شتاته، موته أو حياته، كان الباهلي مع رهان السلاح وكان مهدي جواد يدعو للتنسيق بين حرب المدن والأرياف.لكن كل شيء كان يبدو وكأنه يأتي بعد فوات الأوان.ذلك أن اللحظات التي يختطف فيها التاريخ لصالح القوى الجديدة بالحياة كانت قد مضت إلى غير رجعة-٢٤).. واضح أن (القوى الجديدة بالحياة) التي وصفها الكاتب، هي الجهة التي تمتلك (السلاح) والقادرة على استعماله في الوقت المناسب بالاتجاه المناسب، لم يكن في النهاية هو الحزب الشيوعي بل خصمه اللدود!.. كل الأحزاب في العراق نصبت نفسها بنفسها، على أنها القادرة الوحيدة على قيادة قطيع الشعب بالاتجاه الصحيح..لم يفكر أي من هذه الأحزاب نفسه بسؤال هذا القطيع إن كان يرغب أن يسير بالاتجاه(الصحيح).

(في الاجتماع السري بحي الكاظمية، تحدث مهدي جواد لخليته عن الوضع الراهن.حدد بنقاط واضحة الخطين المختلفين للحزب، خط جبهة الكفاح الشعبي المسلح وهو خط"ظافر"والخط التحريفي الملحق والتابع للبرجوازية الحاكمة وهو خط آب التصفوي.الخط الأول ممثل بالقواعد المؤمنة بخوض نضال مسلح في الريف والمدينة لإسقاط سلطة البرجوازية وإقامة حكم الديمقراطية الشعبية، والخط الثاني ممثل بقيادة اللجنة المركزية المتواطئة مع حكم البرجوازية، والتي ما زالت تؤمن بالعمل السياسي السلمي وتراهن على الانقلاب العسكري الثوري.

......هذه القواعد الآن ملقى على عاتقها مهمة هدم العالم القديم وبناء عالم جديد للبروليتاريا العراقية قائدة المستقبل.ثم شرح مسألة عزل القيادة الانتهازية التحريفية، وانبثاق قيادة جديدة على مستوى المناطق.وأكد على ضرورة السرية والاختفاء والسلاح الذي سيوزع على الخلية قريبًا، قواعد الحزب لا تزال متماسكة رغم المحنة ورغم تواطؤ القيادة.خلايانا في الجيش سليمة.في الديوانية هناك فصيل مسلح، الرفيق ظافر ومجموعته يحضرون لكفاح شعبي في الأرياف، القتال لإسقاط السلطة الفاشية هو المهمة المركزية الآن...... واصل مهدي جواد شحن خليته:إن حزبنا الذي تمرس بالكفاح منذ تأسيسه على يد الرفيق المناضل"فهد"هو الآن أمل ملايين الشعب العراقي-٤٣، ٤٤).. لكن السؤال، من أين جاء هذا اليقين الذي لا يقبل الجدل للحزب الشيوعي أو غيره من الأحزاب من أنهم يمثلون طموحات (ملايين) الشعب العراقي؟.. وفي هذه الحالة الخاصة بالحزب الشيوعي، لماذا انقلب عليهم (ملايين) الشعب العراقي وشارك بتصفيتهم وإن كان على

مستوى أضعف الإيمان واكتفى بالتفرج على مذبحتهم؟.. هكذا الحال في العراق دائمًا.. توزع الألقاب المجانية الفارغة من أي مدلول عقلاني على قادة الأحزاب، فمن "فهد" الرفيق المناضل إلى عبد الكريم قاسم "الزعيم الأوحد" إلى أحمد حسن البكر "الأب القائد" وأخيرًا كل الألقاب إلى صدام حسين!

إنه ابتذال رخيص للغة واستهلاك حد تفريغ الكلمات من معانيها واستخفاف مذهل بوعي الشعب!.. مبالغات وكذب ودجل.. الكل يصفق..الكل يرقص..الكل يغني.. الكل خائف!

ثم يصف مهدي جواد، قيادته.. (وشرح مهدي جواد المشحون ضد انتهازية القيادة بأن قيادة الحزب، رغم وجود تيار ثوري يطالب باستلام السلطة، لم تتخذ قرارًا باستلام الحزب للسلطة السياسية، كانت قيادة جبانة وذيلية للبرجوازية والدكتاتورية. إن قيادة حزب شيوعي تتخلى عن تعاليم لينين في استلام السلطة بالعنف، وتنتهج النضال السلمي-الديمقراطي ليست أكثر من قيادة بيروقراطية، تحريفية، جبانة تقدم حزبها بطواعية لسكين الرجعية-٤٥).. نحن الآن في عام ٢٠٠٥ ، لقد شاهدنا بأم أعيننا انهيار الإمبراطورية الأممية بقيادة الاتحاد السوفيتي ومنظومة دول حلف وارسو، حيث في النهاية لم تنفعها مقولات لينين كثيرًا، واتجهت بملء اختيارها نحو النظام الديمقراطي، وحققت بسنوات عديدة ما لم تفلح بعمله طوال عقود طويلة تحت قيادة الأحزاب الشيوعية!.. وسؤالنا، ماذا لو نجح فعلاً الحزب الشيوعي

العراقي في استلام السلطة؟.. هل كانوا سيكونون أفضل فعلاً من حزب البعث القومي؟.. أم إنهما في النهاية وجهان لعملة العنف الواحدة؟..

ولا يكتفي مهدي جواد بذلك.. فهو هنا يدين عبد الكريم قاسم، الذي حكموا البلد من وراء ظهره.. (وسأل أحد الرفاق عن التحالف مع الدكتاتورية العسكرية، وهل كان الزعيم يثق بالحزب وخطنا الاشتراكي: وقال مهدي جواد: فيما بعد ثبت عكس ذلك، في البدء ناور بنا، بعصا الحزب صفى خصومه، أعطانا بعض المراكز والمؤسسات الإدارية، وبعد أن شل خصومه شعر بخطر الحزب فانقلب عليه، كان الزعيم يلعب كأي عسكري معزول شعبيًا، لعبة التوازن ليبقى هو- ٤٥)..

إذًا الشيوعي العراقي مهدي جواد، يعترف بأنه وحزبه كانوا عبارة عن عصا بيد الجنرال، ينزل العقاب بهم على خصومه السياسيين!.. إنهم لم يكونوا مجرد عصا بيد جنرال، بل أداة قتل. ثم أي حزب هذا يدعي الثورية الحزبية وله مؤسساته وقيادته وقواعده ومثقفوه والمتعاطفون من أبناء الشعب معه، أن يلعب بهم شخص واحد ويناور؟.. أين يكمن السخف في المشهد السياسي العراقي. وحجم التفاهة!!

إن الأحزاب.. كلها.. بدون أي استثناء، هي في النهاية أحزاب تعتمد العنف لتصفية خصومها لتنصيب دكتاتورية مطلقة وتفتقر لأبسط قواعد الديمقراطية والإنسانية.

أما القواعد الحزبية، فما هي في النهاية أيضا سوى أدوات تنفيذية، لا دور لها سوى التهريج والتصفيق في حالة السلم، وأداة قتل في حالة اقتتال العشائر الحزبية (قال الرفيق العمالي: يا رفيق مهدي.عفوًا، أردت أن أصل إلى نقطة أسكتني بطرفها.أريد أن أقول، لماذا استيقظنا فجأة على أخطاء القيادة وبدأنا تهشيمها!لماذا لم تتضح هذه الأخطاء سابقًا؟العفو.أريد أن أسأل أين الصوت الذي ارتفع ضد هذه القيادة سابقًا؟الحقيقة أن سؤالي يتجه نحو الديمقراطية الحزبية.

- ماذا تريد أن تقول بالتحديد؟

تلعثم الرفيق العامل. وضع يديه على ركبتيه،ثم ما لبث أن هرش شعره الأشعث:

نحن في بيت الحزب. وهذا اجتماع مصيري. موت أو حياة كما قلت. ليكن موقفك وموقف الرفاق مني ما يكون. سأجهر بما أعتقد. سأقول إن الديمقراطية كانت مفقودة وإن قواعد الحزب ما كانت سوى أدوات تنفيذية، والآن نحن نذهب إلى المذبحة وليس إلى استلام السلطة. الخطأ قديم. لعله كان في صلب الحزب، أعني كان في البنية التنظيمية والسياسية، لم تكن القيادة هي المخطئة وحسب، الخطأ محصلة تراكم تاريخي ونحن جميعا مسئولون عنه ، هذا ما أحسه كعامل بسيط في خلية شيوعية، أقول ذلك بألم وأنا ذاهب إلى الموت أنا مع حزبي حتى النهاية - ٤٦)...إن قيادة الحزب في تلك المرحلة، كانت مسئولة بشكل كبير عن إبادة قواعد الحزب والمتعاطفين عمومًا مع اليسار، من أمثال

هذا العامل البسيط الذي آمن بغد أفضل له ولأطفاله وشعبه..فكم من البسطاء الذين آمنوا بكذب الأحزاب العراقية وراحوا ضحايا بلا معنى ولا ذنب؟!

أما عن الجانب الآخر، الأكثر دموية.. الحزب الحاكم، فقد كان عبارة عن مجموعة من المغامرين الذين استولوا على السلطة وتربعوا على عرش الدم، فلم يكن لهم أي خيار.. وكما الشيوعي، كان البعثي.. موت أو حياة.. إن الحياة لا تستوعبهم معًا، مع أن الموت استوعبهم جميعًا!.. لقد انهالوا بسياط جهنمية على أجساد خصومهم وفتحوا أبواب الجحيم على مصاريعيها، لقد صمموا على إبادة الشيوعيين وإلى الأبد، ولم يكن بوارد حساباتهم قطع الذنب فقط، بل سحق الرأس.. وكان لهم!

(وسمع أصوات تصيح وتئن بينما الرصاص يخطفها، الجوع والمطاردة والتشرد والفرار من وكر إلى آخر تحت رعب الموت.اغتيالات بغداد والموصل والبصرة والحلة، ثم فاجعة الأهوار.

- اسمك، خليتك، أماكن الاجتماعات، الأوكار، نوع الأسلحة ومصادرها. قيادتكم خانتكم.إنها في قبضتنا. أتريد الأسماء. استمع: عامر عبد الله. عبد القادر إسماعيل. زكي خيري. العبللي. صلاح أحمد. جميران. عبد الأمير عباس. السباهي. كلهم اعترفوا.كتبوا براءتهم.لقد سمعها ورآها الشعب على شاشة التليفزيون وعلى صفحات الجرائد.كالفئران سقطوا وكشفوا الجهاز كاملا.

الضرب الضرب.الضرب.

الدم.الدم.الدم.

وإذا لم تعترف على القيادة الجديدة ستعدم ككلب.ابن القحبة، ماكو شيوعية بعد اليوم في العراق.شنو هاي الشيوعية.صار مأواها المجاري والبواليع.انتم شنو؟

حفنة جواسيس، عملاء لموسكو، سيدتكم باعتكم. مصالحها معنا. أنت مو عارف انو السوفيت تجار.قواد.ولد القحبة.شنو هاي القيادة الجديدة؟

كالإخطبوط كلما قصصت له ذراعا ظهرت أخرى.هيا اكتب كل ما تعرفه عن حسن ألعبيدي، وإلياس ديمتري، والعلاوي، والأحمدي، وخليل كرم.أعطوه الأوراق.اسمع إذا كذبت تعرف نهاية الصامدين في قصر النهاية.

الصمت يدوي، والرأس مختلج ومختل، والعالم مظلم ومضاء بنور مبهر.أصوات المعذبين والطلقات والصرخات.

آه.يا لهذا الجنون الدموي.دوي جبل شامخ، صلب، ينهار، يتداعى وينهار-٧٥، ٧٦).

لا يبقى في النهاية سوى طعم الفجيعة، والحزن الذي يتراكم كجبل أسطوري على صدور العراقيين، يصنعونه بإتقان وينقلون حجارته من كل بقاع الأرض..الحزن ذلك الجبل المقدس!... (خصوبة الحياة ثم عمق المفاجأة التي تأتي كصفعة الموت وهما الآن يخطوان فوق الغبار، غبار المدينة التي كان اسمها بابل.المدينة المرممة والتي تبدو الآن كمومياء. تمثال الثور الهاجم والمرأة المضطجعة يشير إلى انتصار بابل على آشور التي تغتصب. تشير الفتاة إلى تمثال البازلت الأسود إشارة جنسية عابرة وينحدران بين الغبار.لم يبق من بابل غير الأنقاض وهذا الغبار والصلصال المرمم، هما يعبران الأنقاض يسمعان صوت حمام ينوح.

تقول الفتاة: اليمامة تنوح حبيبها المفقود. ثم تروي قصة عاشقين من بابل القديمة.

العاشق الذي أخذته الحرب والعاشقة التي تموت حزنًا وحنينًا بانتظار الفارس الذي لا يعود، يستلقيان على العشب تحت شجرة نخيل، الوقت أصيل، والظلال تسيل على وجه في لون العسل.شعر أسود كثيف كدغلة، وعينان تلمعان بوميض غريب، خاطف للقلب، وهي تتكلم تتكثف، من وجهها يشع بريق يضيء: تاريخ العراق هو تاريخ الفقدان. تقول المرأة-١٢٨)

كلما ازدادت شراسة طرف ما في المقاومة، يقابلها تصعيد غير مسبوق من الطرف الآخر.. أقصى حالات العنف والبربرية.. أقصى الجنون والهوس.. الأوكسجين قليل في هواء العراق.. لا بد من الإبادة.. (الحي- الميت الذي دفن قبل أعوام في سجن الحلة بين خمسمائة سجين ضربوا وأهينوا وعذبوا.بدءًا من تحطيم الأضلاع والرأس بالأحذية العسكرية عبورًا بالصدمات الكهربائية على أعضاء التناسل، قلع الأظافر بالكلابات وإدخال زجاجات البيبسي في الإست وممارسة اللواط إلى حرق الجسد بأعقاب السجائر.طقوس عذبة للجلادين. احتفاءات جنسية لآلهة الليل. الضعفاء ماتوا تحت التعذيب. وآخرون فتحوا نفقا بمفك براغي ومدية مطبخ خلال شهر من الإصرار وتوهج الروح فخرجوا إلى حرب المدن وحرب الأهوار وبقية الحروب الخاسرة. آخرون أمضوا عقوبتهم أو جزءًا منها ليخرجوا حطامًا أو

خونة. تهم واعترافات وشتات وانشقاقات ومحاولات لتأسيس جديد مناقض لما مضى.الذي تأسس ترسخ بعد الانهيار، وصراخ عواصف الدم والموت: العودة إلى الموال القديم، التحاق ذيلي بعربة كاليغولا عبيد الله الكلبي الحاكم بأمر الله وأمر السيف.الحجاج الثقفي المقعي على العرش. رب السموات والأرضين الذي يقول للشيء كن فيكون. وما كان يمكن أن يكون في ذلك الزمن سوى الخيار بين المقبرة أو الانصياع.الهلاك أو المنفى، فأما من خضع وخاف وانصاع فقد ابتلع الموسى وأما من خرج صارخًا في براري الروح الناهضة هائمًا لا يدري تحت أي سماء أو في أي أرض يموت، فقد اختار الزمان الغامض.الزمان الأقسى.

يوتوبيا.يوتوبيا.

القيامة.القيامة.-(٣١٢، ٣١٣).. لم يكن الشيوعيون وحدهم يدعون تمثيل الشعب العراقي-وأمله – بغد أفضل.. البعثيون كانوا يعتبرون أنفسهم كذلك!!

(بعصبية سحق مسئول البعثة سيجارته تحت قدمه.نظر إلى مهيار بعينين تقدحان شررًا:اسمع عيني مهيار، مهدي جواد وأنت وسائر الحاقدين لا هم لكم سوى التشنيع على بلادكم هنا. الشعب في العراق عارفكم زين. زمرة منبوذين معادية تشوه المسيرة القومية بالكلمات الحاقدة اللامجدية. شنو هاي عيني الماركسية المستوردة التحكون عنها! أصلا أنتم في واد والشعب في واد، أنتم غرباء في بلادكم.من أجل ذلك

لفظكم الشعب لفظ النواة........ لقد بدأت الأمور تأخذ اتجاها آخـر. عندما اتهم مهيار عضوين من أعضاء البعثة بتقديم تقارير أمنية للسلطة الجزائرية وإرسال نسخ منها إلى العراق: هل هناك ما هو أكثر خزيًا من هذا؟ لماذا هـذه النذالـة؟-٣١٧، ٣١٨).. هكـذا كـان الحـال وهكـذا سـيبقى (لا يغـير الله نفسـا).. الاتهامـات سـتبقى تتطـاير بـين العراقيين..الكل لا يرغب في الحوار مع الآخر، وإن أجـبر عـلى ذلـك، فسيحمل الخنجر بيد وقارورة السم باليد الأخرى!

هجرة أو هروب.. سيان.. كثير من شباب العراق ، فجـأة لم يجـدوا أمامهم مخرجًا آخر من هذه المقتلـة التـي وجـدوا أنفسـهم في وسـطها. والعراق يعاني منذ تأسيس الدولة العراقية الحديثة ، من موجات هروب أو هجرة، بشكل متواصل كل بضـعة سـنين.. الأوكسـجين في العـراق يقل!!

(إنه يخرج الآن من الـبصرة. متسـللاً يخـرج مـع غـروب الشـمس المنحدرة نحو الخليج. يتناول جواز سفر مـزورًا ويغيـب-٩٧).. آلاف مؤلفة خرجوا بهذه الطريقة أو أخرجوا.. لكن إلى متى؟.. طعم الخيانـة يبقى مر المذاق؟ إلى نهاية العمر..وفي حالة مهـدي جـواد.. (مـا الـذي يبقى من الزمن السعيد عندما ينشق الشيوعي على الشيوعي ويسلمه إلى سكين الجزار؟-٢٥٩).. إن الـزمن السـعيد هـو أكذوبـة الأكاذيـب في العراق.. لم يكن كذلك ولن يكون، فالذي سلمت رقبته إلى الجـزار هـو

في النهاية عراقي، والذي سلمها هو عراقي آخر، والذي حزها عراقي كذلك.. ما الذي بقى في شعب يكره نفسه!.. بقايا بشر!

(كتب مهدي جواد في ذلك المساء"المنفى اغتراب جديد يضعك وجها لوجه أمام نفسك. إنه يضعك أمام المرآة، وها أنت تراجع هيروغليفيا الزمن في استراحة الحرب. ثمة عطب داخل الإنسان وداخل الكتلة يرى الآن بوضوح أشد في هذا المنفى.التجربة قالت ذلك بمرارة، وفاجعية الدم، ربما. لكن الأشياء لا تزال هلامية سابحة كقناديل البحر-٤٢)..... (وهذا الرجل لا يعدو كونه صدفة فارغة إلا من الأصداء طرحها البحر، حملته الريح ذات غسق لعين فوصل شاطئ بونة"مدينة في الجزائر"البعيدة وهو حطام-٣٦)..... (يحس الرجل بأنه مطارد، وأن شخصًا ما يتعقبه، رجل لا يعرف ملامحه بدقة.كان ينتظر المفاجأة في المنعطف القادم........ إنه يخطو مسرعًا. متوجسًا أبدًا. متأهبًا أبدًا. كان الخوف يسري هناك، في الفقرات التي ستتلقى الضربة من يد تتأهب لتطعنه من الخلف-١٠)..... (عندما خرج من العراق لم يكن حزينًا. فقط أحس بانقباض غامض وهو يغادر، ورأى الفجر رماديًا فوق دجلة، وكانت الأشعة الأولى للشمس تشع كالماس فوق الماء........ وكما يحدث في حفل تراجيدي عامر بالرهبة والجنون والحب تنطلق الزغرودات مع النحيب. أصوات الأمهات والعمات والأخوات والصديقات النادبات في احتفال خروج مهدي جواد مع أصدقائه الهاربين تلك الليلة التي أمحق قمرها ثم انغمر صداها في عمق الليل الغارق في مهرجان من الفزع ورائحة القتل العميم......... إنه

يفر الآن من أرض الجحيم. جواز سفره مزور، ورأسه مليء بشظايا حلم تبدد. والأصوات: زمانك انتهى بين فراراتك واختباءاتك في أوكار بغداد والبصرة والعمارة والحلة والناصرية، وبين مقبرة الهور التي كفنت أطفالها بطحالب الماء .... أخيرا، هو ذا مهدي جواد ينجو بجلده من طقوس المذبحة-١٥، ١٦).

ليس كل الهاربين أو المنفيين بالضرورة من السياسيين، بل إن الكثير منهم خرج أو هرب لأنه مل رائحة الدم وعفونة الأفكار المتطرفة.. فها هو أحدهم يتذكر..

(- الآن أنا لست حزبيًا. صدقني أخي مهدي إنني لا أكره الشيوعيين ولا القوميين لكنني رأيت ما حل بالعراق من المآسي...... عشت وشفت المرارات والدمار أحزاب الماركسية والقومية وضيق أفق الإخوان ولا عقلانيتهم. اقتتال طوائف.هذا ما رأيت.قلت الكل باطل وقبض الريح.كما قلت:الجميع أوصلونا إلى حطام الوطن-٢٥٨)..

في النهاية يتساءل حيدر حيدر بلسان بطله، وهو السؤال الأهم الذي يبقى بدون إجابة... (ليكن السؤال هكذا:الإنسان أولاً أم المجتمع؟ وهل بالإمكان بناء عالم جديد بإنسان قديم؟-٤٣).

لقد قدم حيدر حيدر ، الشخص العراقي في وجوه عديدة..فهو مناضل يحارب الظلم والرجعية والأفكار المتطرفة..كما هو جبان ينهار تحت الترغيب أو التهديد ثم خائن يسلم رؤوس رفاقه إلى سكين الجزار..لكن أهم من كل هذا هو التطرف في ممارسة العنف.

إسماعيل فهد إسماعيل

(إحداثيات زمن العزلة) سباعية روائية للكاتب الكويتي إسماعيل فهد إسماعيل الصادرة عن (دار الوطن) (طبع بدعم من المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت) في عام ١٩٩٦ وهي بمجموع أجزائها السبعة تتألف من - ٢٤٢٣ - صفحة من القطع الكبير..أما تسلسل الأجزاء فكالآتي:

١ - الشمس في برج الحوت.

٢ - الحياة وجه آخر.

٣ - قيد الأشياء.

٤ - دائرة الاستحالة.

٥ - ذاكرة الحضور.

٦ - الابابيليون.

٧ - العصف.

توفر لنا هذه (الملحمة!) الروائية، فرصة إلقاء الضوء على رؤية كاتب كويتي عانى من احتلال العراق لبلده وبالتالي فالسلبية المطلقة،

هي التي تلقي بظلالها الكثيفة على الشخصية العراقية في هذا العمل من البداية وحتى النهاية، وتبرزه (من وجهة نظر الآخر) بشكل سلبي سافر، فاضح، عار.. ومخجل!.. كما يصور العراقي على أنه شخص غريب الأطوار، بدائي أقرب إلى الهمجية والبربرية منها إلى الصورة الإنسانية المتعمقة في مأساة هذا الإنسان. وعلى عكس كل الكتاب العرب الذين تناولوا بعض الجوانب الإيجابية في الشخصية العراقية بهذا الشكل أو ذاك.. يبقى هنا في عمل الروائي إسماعيل فهد إسماعيل شيء آخر.. ربما لأن مجال الرؤية يختلف..فهنا تكون الرؤية من الداخل..داخل الحدث..الاحتلال الذي يصل إلى حدود الاستباحة، ويجسد موروث البدو..الغزو، ولكن ليس شعريًا أو رومانسيًا كما في أشعار العرب..بل بشكل دموي، مخيف، وكارثي بكل معنى الكلمة. العمل أيضًا يتحدث عن المقاومة الكويتية للاحتلال العراقي.. ويبدو أن المؤلف قد قرأ الكثير عن أدب المقاومة وحرب الأنصار خلال الاحتلال الألماني النازي للعديد من الدول الأوربية، بالإضافة إلى غيرها من أدبيات المقاومة الشعبية..فهو يصور لنا الكويتي وكأنه مخلوق آخر غير المتعارف عليه والواقع، أنه هنا (سوبرمان!).. طبعًا لا ضير في ذلك عندما يبقى الأمر في حدود المعقول، لكن عندما يخرج عن المألوف يصبح الأمر شيئًا مضحكًا..لهذا أعترف أني قد عانيت بشدة حتى أتمكن من إكمال قراءة هذا العمل، حيث التكرار والمبالغة التي تصل إلى حدود السخرية!

لكن ما يهمني هنا هو كيف ينظر الكويتي الذي احتل بلده من قبل العراق إلى العراقي!.. وسأختار في البداية جملة وردت في الجزء الثاني..تلخص كل العمل الطويل وتختزله بدقة.. (مطلوب من كل الكويتيين في الداخل أن يختفوا من كل مكان حتى لا تنالهم يد البطش، ويتحتم عليهم تواجدهم في كل مكان بغية تدبير أمور حياتهم، يواصلون بقاءهم في زمن عراقي مطلق-ج٢-٧٧).

كان احتلال الكويت عملاً وحشيًا بكل القياسات على الرغم من الاختلاف السياسي أو الاقتصادي، وكان الإجراء العراقي أكثر بكثير مما هو غير عقلاني وجرّت البلدين إلى كوارث عديدة لا تزال المنطقة تعاني منها، خصوصًا الفاعل العراقي.. كما تم إلصاق صفات- أو أعيد اكتشافها- في الشخصية العراقية من قبل الكويتي. فها هو إسماعيل فهد إسماعيل يصور العراقي..(- الجيوش العراقية..

- اجتحت الكويت..

- ماذا قلت؟!

تساؤلها يتضمن رفضها تصدق. وجهها قبالته. عيناها هاجس الفجيعة.

اكتفى أكد خبره بهزة من رأسه.لم يفاجئه رد فعلها:

- مجرمون جبناء!!-ج١-١٧)

(-..الاحتلال لم يفرض سيطرته الكاملة على الكويت!

استغرب منها استخدامها كلمة (احتلال) أدبياته السياسية تفيده أن الاحتلال يجيء استعماريًا غربيًا بالدرجة الأولى، أما والحالة عراقية.. فوضى الذهن باختلاط المفاهيم وتبادل مواقع القيم-ج١-٢٦)

(الجنود العراقيون
أجاب الحاج محمد بعدما فهم السؤال على طريقته، أكمل
- ينتشرون كالجراد. يملئون الشوارع والساحات والمباني-ج١-٣٥)
(- يقال إن القوات العراقية لجأت إلى أسلوب المخادعة كي تغرر بالكويتيين.. تغلغل داخلا دون مقاومة.. ذلك من خلال رفع أعلام كويتية-ج١-٣٩)
(ردت بحزن محاصر، واستطردت بدافع من حقد عارم:
- لو لا أؤلئك الكلاب
فضول سليمان يأخذ عليه وجهه، يتساءل باستفزاز بريء:
- كلاب؟!
حقد سهى يتدافع في صدرها لدى إجابتها موضحة:
- العراقيون -ج١-٥٠)
(- إضراب عام عن العمل.. مفتوح..
....
- ومن لا يلتزم؟
عيسى يجيب على الفور:
- يعامل معاملة العدو -ج١-١١١، ١١٢)
(ضغط شعور الكارثة، وأشد منه إدراكك أن الكارثة قائمة الآن..وأن استمرارها.
نظام بغداد، أساليبه، قتل جماعي.. أم حكم بإبادة عامة؟!-ج١-١١٤)
(-"هويتك"
نقاط السيطرة ومفارز التفتيش التي خص بها الاحتلال العراقي الكويت

تتوالد عن بعضها، لتتواجد عند كل مفرق وزاوية.

- إن كانت عندك علبة سجائر!

....

- من أين اشتريت ساعة اليد هذه؟

- الكويت.

مفارز التفتيش..وحدات دورية محمولة.بلدك تعج بهم

"مسألة دفع الثمن..كيف؟!-ج١-١٣٤)

(قالها صالح، قبل أن يستطرد باشتراط لا يخلو من مرارة ساخرة:

- أما إذا تنبه مختصو النهب من العسكر المتواجدين في منطقة الشويخ إلى مخازننا هناك-ج١-٢٤٢)

(إلى جانب العديد من قصص بدأ الناس يتداولونها حول إقدام جنود عراقيين على اغتصاب نساء عدة من جنسيات مختلفة، عدا أعمال السلب والنهب والقتل في حالة التصدي-ج١-٢٥٣)

(-.....الفرق المتخصصة بأعمال السلب والنهب من جيش النشامى..صوته ينضح سخرية مريرة..

- ....أنهت واجبها تجاه المحلات التجارية في شارع فهد السالم، مجمع المثنى.

سوق الكويت الكبير..سوق الوطية-ج١-٢٧٧)

(السيارة، تواصل سيرها. مجمع الأوقاف يمينا. موقف سيارات المجمع يزدحم بشاحنات عسكرية، وبضع سيارات تاكسي عراقية بألوانها المميزة، وعشرات من الجنود في حركة دائبة، يعملون على نقل أكياس بلاستيكية سوداء منتفخة.

- ينهبون محلات المجمع!

أشار محمد صالح، أكمل مبديًا حقدًا:

- حولوا الجيش العراقي إلى عصابات لصوص وقطاع طرق!

-.......حطام سيارات.هياكل.أبنية خاوية.شوارع مقفرة.عدا زمرة من الجنود يتحركون بخفة في ظلال الأبنية حاملين أكياسهم البلاستيكية السوداء.. يظهرون فجأة.. يختفون بأسرع-ج١-٢٤٩)

(النشامى حولوا مدينة الكويت إلى مقبرة أخرى، كل السيارات التي اضطر أصحابها أن يتركوها يوم الغزو..مر عليها جراد نظام بغداد..عراها من كل ما يمت لإمكانية الاستفادة بصلة-ج١-١٣٨)...(تفشي ظاهرة سلب الكويتيين من جانب جنود الاحتلال.

مصطفى يضيف:

- الكثير من حالات السلب كان مصحوبًا بعمليات قتل-ج١-٣١٠)

(- من أين لك ثقتك بخروجهم؟!

- لأنهم يسرقون كل شيء.. عسكر الاحتلال..سيارات شاحنة عملاقة -ج ٢ -٢٣٩)

أعمال السلب والنهب على قدم وساق..أملاك عامة..أو خاصة-ج٢-٣١٥)

(- يتفننون باستثارة كراهية الجميع ضدهم!!

قالتها الأم مبدية وجهة نظر.

- هم لم يكسبوا حربهم مع العالم بعد..

قالت إيمان، ختمت:

- لكنهم كسبوا احتقاره-ج٣-٣٨)...(سأله ابنه بخوف غريزي لا حد له:

- هل سيقتلك العراقيون؟-ج٣-٦٣)...(الخطاب أوضح أسبابًا، وكشف جريمة العصر..النازية كانت في أوربا، والنظام العراقي. الدوافع محيرة،

الاستباحة، التقتيل، الأسر، الاعتقال، التعذيب، السلب، النهب، طمس الهوية.شحنات هائلة من حقد أعمى لا تفسير له-ج٣-٣٢٠).... (ثلاثمائة شاحنة عملاقة يصار إلى تحميلها على مدار الساعة، تمهيدا لسوقها بعد ذلك، قوافل محددة، خاضعة لحراسة عسكرية مشددة. مغبة تعرضها للنهب من جانب عصابات منظمة، تنشط-ليلاً خاصة- على طول الطريق الدولية الواصلة بين محافظة البصرة وبغداد العاصمة-ج٥-١٠٩)

(كانت سلطات الاحتلال -تأكيدًا للهوية العراقية-استبدلت اسم شارع فهد السالم بشارع (فاو) الاسم والمسمى، عصف ريح ومرتع كلاب ضالة. حطام واجهات محلات. بدت وكأنها لفظت ما بداخلها خارجها، على الأرصفة وفي عرض الشارع. بعدما تعرضت لعمليات نهب عشوائية متوالية-ج٦-٧٦)......

طبعًا ما اخترته هو غيض من فيض، فالكتاب بأجزائه السبعة تقريبًا يقسم إلى قسمين، أولهما هو تعداد المزايا السلبية للشخص العراقي، صحيح أنه يتكلم أكثر عن الجيش العراقي، لكن هؤلاء لم يأتوا من الفراغ أو من دولة أخرى، وبالتالي فالتورية كانت غير منطقية ، إن الجيش العراقي هو هو الشعب العراقي. أما القسم الثاني فيتحدث عن المقاومة الكويتية، وهذا الجزء لا يهمنا. إن الصفات التي أسبغها الكاتب على الشخصية العراقية في كتابه تراوحت ما بين السلبي وما هو أكثر!.. ولا أدري هل أن هذا التحول في رأي الكويتيين بالعراقيين وليد لحظة

الاحتلال أم هو أبعد من هذا؟.. أعني ألم يكن الكويتيون هم أقرب العرب وأكثرهم معرفة بالعراق والعراقيين!.. كيف لم يتسن لهم اكتشاف هذا الكم الكبير من السلبية في الشخصية العراقية قبل الاحتلال؟

إن إسماعيل فهد إسماعيل يذكر في المقاطع التالية(حقائق) عن العراقي وكأنها بديهيات مسلم بها، وإذا آمنا سلفًا برأيه، فلماذا لم يذكرها قبل- الغزو- والكويت كما هو معروف من أكثر الدول العربية التي ساندت العراق في حربه على إيران وكانت قريبة جدًا من النظام الذي افترسها فيما بعد؟

(مع النظام العراقي لا يمكنك استبعاد ما هو مستبعد-ج١-١٣)...(العراق أول بلد في العالم من حيث تعداد النخيل، وعدد المشردين لأسباب سياسية.في طهران ومدن إيرانية أخرى أحياء خاصة بهم، في دمشق أيضا-ج١-٦٨)..

(- استشهد الشيخ فهد الأحمد..

قالت شيرين. كانت هبطت من الطابق العلوي. عيناها المحتقنتان تؤكدان مشاركتها ابنتها فجيعتها، أتمت:

- سيكون وصمة عار في جبين نظام بغداد!

ندت عن إيمان ضحكة صغيرة دالة:

- لدى نظام بغداد من الوصمات ما يكفيه وزيادة!-ج١-١٢٠)...

(النظام العراقي من أخطر الأنظمة القمعية التي عرفت في التاريخ، وأشدها دموية وبطشًا-ج١-١٨٧)... (ويعرف عن الاحتلال الفاشي وردود أفعاله المسعورة إزاء الإجهار بمعارضته-ج١-٢٣٧)... (النظام العراقي.. أرخص ما عليه هو الحياة البشرية- ج١-٣١٤)... (نظام بغداد محكوم بالحرب. استعدى بعضه على أكراده، واستعدى العرب على إيران، وها هو يستعدي العرب فيهم-ج٢-٥٦)... (نظام بغداد. طبيعته الدموية. مقومات استمراره باستمرار حروبه العدوانية، افتعاله حربه مع جارته إيران.الحال السجال... الخسائر البشرية-أيًا كانت- بغض النظر-ج٢-٢٥٣)....

يبدو أن إسماعيل فهد إسماعيل لديه معلومات جيدة جدًا عن حالة النظام العراقي وعدوانيته، ولا أدري لماذا لم نسمع هذه الآراء القيمة والحقيقية عن النظام الفاشي قبل الاحتلال مثلا؟.. في حين على ما أذكر أن كل المثقفين الكويتيين كانوا ضيوفًا دائمين على مهرجانات النظام العراقي التي لا تنتهي!

نعود لنرصد مع المؤلف بعضًا من الأفعال المشينة التي تسبب بها العراقيون أثناء احتلال الكويت، ونتعرف على جانب آخر من جوانب الشخصية العراقية بنظر كاتب كويتي خائف ومذعور.. ومندهش ..

(قتلوا ثلاثة شبان كويتيين رميًا بالرصاص تحت جسر محول بيان- ج١-٥٦)..

(أعداد لا حصر لها من سيارات الأجرة بألوانها الفاقعة تجوب

مناطق الكويت محملة بأنماط بشر... نظرات شرهة لا تخفي اندهاشها الحاقد -ج٢-٣٤)..

(الاحتلاليون يهدفون إلى إيجاد نوع من الاستعمار الاستيطاني!

صوت عبد المحسن لا يخلو من غضبه.واصل:

-وإلا..ما معنى توافد العوائل العراقية.. احتلالهم مساكن الكويتيين عنوة........

- سلوك لصوص-ج٢-٣٥)....(فجاءة أضيئت إحدى نوافذ الطابق الأول من المبنى. حيث دخل الرجلان"سرقة استيطانية بوضع اليد"..................

المرأتان بقيتا ملازمتين مقعد سيارتهم الخلفي ريثما برز الرجلان خارجين من مدخل المبنى. لحظتها تولت كل من المرأتين فتح بابها قامتا مجللتان سوادا. الأربعة يتوجهون إلى صندوق سيارتهم. يتخاطفون حقائب خفيفة "حدود الخسة"-ج٢-٤٤، ٤٥).....(في الوقت الذي قامت أسواق عديدة في بغداد ومحافظات أخرى لبيع المسروقات الكويتية قامت في شبرة خضار الشويخ سوق تخصصت في بيع منتجات عراقية لها دلالاتها الصلفة-ج٢-١٣).. (جنود الاحتلال تنبهوا إلى مكيفات الهواء في الشقق السكنية الخالية من أصحابها، وكذا مكيفات هواء المساجد والدوائر الحكومية.. تنبهوا بعدها إلى المراوح السقفية.. الأرضيات الرخامية.. السجاد.. مفاتيح التيار الكهربائي.. خزانات المياه.. أغطية المجاري"الفرع ينتقل إلى الأصل"-ج٣-١٤٨)...

(صاروا يكسرون أبواب المنازل الخالية من سكانها. شاحنة عملاقة جاهزة عند الباب. تحميل كل شيء.. أي شيء.. ومن ثم شمالاً باتجاه حدود كانت قائمة-ج٣-٢٢٧)... (في المقابل ازداد توطن المظاهر العراقية.باعة المحلات والأسواق الطارئة والباعة الجوالون.الرجال.سحناتهم. النسوة، الوشم الأخضر والرائحة.. أشغال البيوت الخالية من مناطق الأطراف، وتزايد عمليات النهب بوضع اليد لتشمل مناطق الكويت كلها.صاحب ذلك حضور لم يسبق له مثيل للذباب والبعوض، وتزايد الحيوانات الضالة والسائبة، وكذا قطعان الفئران"الفرع يشبه الأصل".تلال القمامة حيثما وليت وجهك ، فيضان مياه المجاري بسبب انعدام الصيانة، توقف وحدات الصرف.اعتيادك الرائحة.. الزنخة"الفرع يشبه الأصل"-ج٤-١٤٠، ١٤١)..

لو كنت قرأت هذا الكتاب قبل انهيار بغداد، لراودني الكثير من الشك.. لكن بعد سقوط بغداد على يد الأمريكان، وما صاحب هذا الحدث من أعمال نهب مشابهة لوصف الكاتب الكويتي عن نهب العراقيين للكويت وتخريبها يبدو الأمر المخيف الذي كنا دائمًا كعراقيين ننكره!.. فلقد شاهدنا ومعنا العالم كله، العراقيين وهم ينهبون أنفسهم.. دوائرهم، أماكن عباداتهم، متاحفهم، جامعاتهم ومدارسهم.. إن العالم كله شاهدنا في هذا الموقف المخزي واللا أخلاقي ثلاث مرات وخلال سنوات قليلة.. في الكويت وأثناء الانتفاضة ثم بعد الاحتلال الأمريكي للعراق.

في الحقيقة نحن بارعون جدًا في إضفاء أسماء رنانة على أعمال النهب والفرهود هذه، والفاجعة أننا الوحيدون الذين نصدق هذا الدجل!

إن عنف العراقيين لم يتوقف على الكويتيين، بل إنه تجاوزه نحو العراقيين المقيمين في الكويت ثم الجاليات العربية والأجنبية.حيث عقلية الإبادة والإجهاز على الخصم وعدم إتاحة أي فرصة لالتقاط أنفاسه..

(- الاستخبارات العراقية شنت-بدءًا من هذا الصباح- حملة اعتقالات واسعة شملت العراقيين المقيمين من المعارضين للنظام- ج١-٨٥).

هذا وتناول إسماعيل فهد إسماعيل جانب مهم من سلوكية العراقي(التهريجية) واستعداده العالي للتصفيق والتهليل إلى من يرهبه أكثر أو يكسب إعجابه الدموي الطابع.. فكل من يتولى أمر حكم العراق، حتى وإن لم يكونوا راضين عنه في أعماقهم، هم على استعداد للخروج إلى الشارع والهتاف الأبله له ولعشيرته وسلالته.. أيًا كان.. حتى وإن كان ليس عراقيًا!!. وتاريخ العراق مليء بالشواهد.

فبعد انهيار بغداد على يد الأمريكان، ارتفعت في شوارعها صور لآية الله الخميني، علمًا بأن هذا الشعب نفسه قد حارب النظام الإيراني لمدة ثماني سنوات عجاف، وحينها كان الإمام هو الذي يحكم إيران!.. وأي تبرير معقول لهذه السريالية يبقى غير قابل للاستيعاب!

(وما استغرب الكويتيون وقتها أن يعجز الاحتلال العراقي في أن يجد كويتيًا واحدًا يعرف يتعاون معه، كي يضعه في واجهة الأحداث- ج١-١٤٦).

وهذا صحيح جدًا وعلى العكس من العراقيين، فكل محتل للعراق على امتداد المشهد السياسي العراقي، يحير في اختيار(رجالاته!) لكثرة العروض والاستعداد العالي للتعاون مع هذا المحتل..وتاريخ تبادل حكم العراق من قبل العثمانيين (الأتراك) الصفويين (إيران) شاهد على ذلك.. وأما في التاريخ الحديث وحتى لا نغرق في تفاصيل التاريخ، فقد شاهدنا استعداد السنة العالي للتعاون مع المحتل البريطاني في بدايات القرن العشرين بعد احتلالهم للعراق، ونفس الشيء بالنسبة للشيعة مع المحتل الأمريكي في بدايات القرن الواحد والعشرين!

وكون أن المحتل العراقي لم يجد كويتيًا واحدًا يتعاون معه، هي حقيقة تحسب لصالح البناء النفسي للمواطن الكويتي المخلص لبلده المحتل.

(الجميع يلتفون حول التليفزيون، الشاشة تعرض شريطًا لآليات عسكرية متحركة دبابات مدرعات، حاملات جند، زاوية الكادر شاهد عددًا من نسوة متلفعات بعباءات سوداء يحملن دفوفًا ويرددن أغنية، أريد لها أن تكون وطنية عراقية، وغير بعيد عنهن وقف عدد من الأطفال نصف حفاة يشاركون بالتصفيق.

شعور غامر بالدهشة يأخذ على سلطان حواسه-ج١-٢١٦).

كما لا يخلو المشهد العراقي على امتداد أزمانه من منظر المهرجين (المثقفين) الذين هم على أتم الاستعداد للوصول ب(أنا) الحاكم أيًا كان، إلى السماء السابعة ومقابل لا شيء!

(تليفزيون بغداد يفسح ساحة شاشته لشعراء لا حصر لهم.. يلقون قصائد عصماء تتغنى بخصال السيد الرئيس القائد.. يحيون فيه روحه

العبقرية التي حققت معجزة عودة الفرع إلى الأصل. حشد هائل من برقيات التهنئة والتأييد للخطوة الجبارة-ج٢-٣٤).... (مارشات أخرى، وإفساح مساحة وقت لشعراء يتبادرون يتدفقون قصائد تتحدث عن رؤية مستقبلية-ج٢-١١١)... (النظام العراقي يتصدى - بإعلامه الذي يدور في فلك الرئيس القائد- بثقة لا مثيل لها، ويؤكد بدلائل دامغة أنه منتصر لا مفر-ج٢-٢٤٢).

ينتقد المؤلف سلبية العراقيين، بل خنوعهم المرضي للحاكم.. ثم يبرر ذلك بقوله..

(الشعوب على دين ملوكهم-ج٢-١٤٨)...(المحافظة التاسعة عشرة تستعصي على مروضيها مقارنة مع محافظات أخرى قيد السيطرة-ج٢-١٦٥).

في حين كان العراقي مستسلما بخنوع-لأي- نظام حكم، كان الكويتي برفضه السلبي، يمثل إرادة التمرد على الواقع الذي فرض عليه!

(لهاث المذيع يكاد يقطع عليه أنفاسه:

"الآن أيها الأخوة..ننتقل بكم إلى شوارع بغداد العروبة.. لكي تتوافر لكم فرصة مشاهدة جماهيرنا الشعبية وقد خرجت عن بكرة أبيها لتؤكد بتظاهراتها العارمة تأييدها المطلق للسيد الرئيس القائد حفظه الله. .وتندد وتشجب خطاب بوش المزعوم"...انتقال إلى إحدى الساحات المخصصة للاستعراضات. الجماهير حالة احتشاد قصوى والهتاف: "النصر المؤزر لقائد الأمة وباعث مجدها السيد الرئيس".

جانب آخر من الساحة.احتشاد مماثل.الهتاف يأخذ طابع السجع المعد للإنشاد:"بوش بوش شيل إيدك.. هذا الحكي ما يفيدك" اللازمة تتردد صاخبة..

مجموعة من المتظاهرين تشعل النار بدمية تمثل الرئيس الأمريكي. الكاميرا ترينا لافتة قماش عريضة كتب عليها بحروف كبيرة"يسقط المدعي الكاذب الجبان" –ج٣-٢١١، ٢١٢).

استعداد عال وغير طبيعي لـ(جماهيرنا الشعبية) للرقص تحت راية أي سفاح أو محتل، وانقيادهم غير المنطقي للحتف المعد لهم.. وبدرايتهم!!

(بشرهم- من المحسوبين عليهم-هل هو مؤقت أيضا؟!..يزرعون رجالهم في الأرض وعلى مفارق الطرق، فإن قتلوا استبدلوهم بغيرهم، فإن قتلوا استبدلوهم..فإن قتلوا..-ج٣-٣٢٨).

في الأخير نختار هذا المقطع الذي بثه التليفزيون العراقي في خطاب موجه إلى الكويتيين، بعد أن تم إنزال قوات التحالف التي طردت العراق من الكويت..

(المذيع بأهمية"متميزة.وحده-كما هو مفترض- يبدد أنماط الحيرة كافة، ليؤكد جسرًا من المعرفة بواقع الأحداث"أيها الشعب الكويتي الأبي.." حواس سلطان تستفز تصغي.." حان الآن وقت التضحية والفداء. دافع عن وطنك ووجودك. أشهر سلاحك في وجه الغزاة البرابرة–ج١-١٩).

السؤال هو.. من كان يقصد المذيع العراقي بالغزاة البرابرة!!

الخاتمة

في فترة ما..منتصف الستينيات وبداية السبعينيات، انتشر شعار بين الشباب والمثقفين..(انظر وراءك بغضب!)..هكذا قال لنا -مثقفو- تلك المرحلة..

متأثرين تمامًا بكل ما هو دائر هناك..وراء الحدود..

فالماركسيون قالوا لنا أنتم جزء من البشرية..الإسلاميون قالوا لنا أنتم جزء من أمة الإسلام.. أما القوميون فقد قالوا لنا بل أنتم جزء من أمة عربية واحدة!

ازدادت الحيرة وانتشر الارتباك وتطايرت الرؤوس بسبب الحروب التي دارت بين كل من هذه -القبائل- الفكرية، وانطبق علينا المثل العامي العراقي..(طلع هذا الحمار من هذا الوحل!..).

وما جاء في سياق متن هذا الكتاب، هو محاولة بسيطة لفهم الذات ومواجهتها بالحقيقة التي تأبى أحيانًا كرامتنا واعتزازنا بهويتنا أن نعترف بالأخطاء التي ارتكبناها وإنكارها..هي محاولة لمحاصرة الذات بالأسئلة المزعجة غير المجاملة عن كينونتها..ووجدت أن رأي الآخرين

الأقربين منا..الكتاب العرب ربما تصلح بداية للمكاشفة ونزع الأقنعة البطولية الزائفة التي أصبحت جزءًا من وجوهنا!

لم أقصد أن أروج لأي كاتب أو كتاب أو حتى لفكرة محددة.. بل القصد هو جدلية البحث المضني عن جذور تشعبت وتشابكت مع أفكار وأيديولوجيا وأشخاص!..

وإن كانت هذه الجذور تبدو لي – كما أغلب العراقيين- واضحة، لكنها كسراب الصحراء، عصية على الإمساك بها ووضعها على مائدة البحث العلمي والنفسي، لكني في النهاية- نهاية محاولتي- لم يبقى مترسبًا في سوى الحب والنفور!..الحب لهذه الشخصية ذات الجذور الغارقة في القدم..والنفور الذي يسببه الخوف منها!

شخصية قريبة الشبه بآلهة تلك العصور السحيقة، التي تتراءى للبعض، كما ورد في الألواح الطينية، حنونة وحانية.. وللبعض الآخر، قاسية وجبارة في ظلمها..إنها شخصية أرض السواد.. العراق.. الغارقة في الحزن الأبدي حتى النخاع والتضحية المجانية، القسوة المفرطة ومزيج غريب من آلهة غير معروفة الواجبات!

ولعل الأقرب إليها- الشخصية العراقية- هي شخصية الإله آيا.. إله الماء.. فهو من جهة خان مجمع الآلهة البابلي-الأوناناكي- وسرب قرارهم الرهيب بإبادة الجنس البشري وتدمير الإنسان بتسليط الطوفان الكبير عليهم وإغراقهم، إلى المورع التقي -أوتونبشتم- لينقذ ما يستطيع إنقاذه قبل حلول الكارثة سواء من بشر أو حيوانات..لكنه- أي الإله آيا- كان في نفس الوقت أداة تنفيذ الغضب الإلهي ومدمر القرى والمدن..الزرع والضرع..مدن العراق وحضارته..شيء محير!!

خليط متوازن من الخير والشر، ولعل هذه هي جدلية الإنسان منذ خلق ولحد الآن ليس في العراق وحده بل في كل مكان..الرحمة والقسوة!

هذا عن الماضي البعيد، الذي خلف لنا إشكالية كبرى، بل مشكلة مستعصية، هي غياب القضية..أو هموم الوطن؟

فالمواطن العراقي ينظر إلى الوطن من خلال المنظور الديني أو العرقي أو حتى المذهبي.. وحتى لا نوغل في التاريخ البعيد، ولو أن دراسته ضرورية لفهم التقلبات الحادة في مزاجية الفرد العراقي، نأخذ تاريخًا محددًا من مسيرة العراق الحديث.. أي منذ عام ١٩٥٨، في الحقيقة إن تجذر ظاهرة العنف السياسي والعرقي والطائفي أبعد من هذا التاريخ..لكن منذ هذا التاريخ أخذ العنف بعدًا تنظيميًا ومنهجيًا يشبه الإبادة الجماعية كافتراس الإنسان لأعضاء جسمه!

ففي صبيحة ١٤ تموز من ذلك العام قامت(ثورة) حيث انتفض عدد من قادة ضباط الجيش العراقي على الحكم الملكي الذي كان قائمًا لغاية هذا التاريخ وصاحب تلك الأيام المشئومة عمليات اغتيال وقتل وتقطيع أوصال جثث العائلة المالكة وبعض رموز العهد الملكي من السياسيين وسحلهم أو ما تبقى من أجسادهم بواسطة الحبال في الشوارع العامة للعاصمة بغداد في مهرجان شعبي جهنمي لم يشهد له العراق مثيلاً من قبل.. أما القتلة فقد نصبوا أنفسهم قادة وأولياء على أمور البلد، وسط سكوت جزء مرعوب من الشعب وخروج الأغلبية راقصة في الشوارع على خلفية رائحة الدماء والأشلاء الممزقة تمامًا كما تجذب رائحة الدماء الذئاب الجائعة..لقد كان صباح ذلك اليوم الشؤم

هو بداية الانحدار السريع نحو عمق هاوية العنف الذي لا رجعة عنه.. فلم نسمع أو نقرأ أو نشاهد، أن عقوبات قد اتخذت بحق القائمين على تلك الأعمال البربرية أو إحالتهم إلى المحاكمة!.. حتى ولو كانت عقوبات معنوية أو استهلاكية، بل لقد تم نسيان الأمر بكل (بساطة) وأغفل الملف في زوايا النسيان. ولقد كان ذاك البعض من الشعب العراقي الذي لم يشارك في مهرجان المرقص الدموي على أشلاء المغدورين أو يرضى عن حفلات الدم، يرغب في أعماقه بإنزال العقاب الإلهي أو أن تحل العدالة السماوية محل العدالة الأرضية المفقودة، لهذا بدأ بترويج الكثير من الإشاعات أو أنصاف الحقائق عن أخبار القتلة وعلى شكل (قيل إن فلانا..)

أي أن محاكمة العهد الدموي قد تمت في محكمة ضمير الشعب وعلى شكل فيه الكثير من الأسطورة التي يعشقها العراقيون عامة، والتي تبقى هي الملاذ الأخير لشعب مسلوب الإرادة بشكل كامل وتام.. وشعب ضعيف متعب وخائف!

كان من الممكن أن يتوقف مهرجان الدم عند هذا الحد، وأن يبقى محصورًا بين الراغبين في الحصول على السلطة والمتكالبين عليها والمنتفعين بها.. لكن الإشارة الثانية لم تتأخر طويلاً، ووقعت الأحداث البربرية في مدينتي الموصل وكركوك، أقصد هنا أحداث ما بات متعارفًا عليه باسم قطار السلام السيئ الصيت. والتي تمت خلال نفس فترة الحكم التي جاءت بعد الكريم قاسم إلى سدة الحكم التي أنشئت على أشلاء جثث العائلة المالكة ونصبته رئيسًا لأول جمهورية في تاريخ العراق وقائدًا (للثورة).. حيث تم حشد وتعبئة مجاميع من رعاع

الشعب وزبالته ومن مختلف أنحاء العراق وشحنهم في القطار المـذكور وإرسالهم إلى المدينتين المنكوبتين، بحجة إقامة مهرجان شعبي يـدعو إلى (السلام!) ويشرف عليه الحزب الشيوعي العراقي.. وهنـاك اتضـحت النية من هذا الحشد المشبوه.. حيث تم افتعال حادث معين لتبـدأ بعـده أعمال القتل والسحل وتعليق جثث أعدائهم على أعمدة الكهربـاء، بـما فيها جثث النساء.. في موجة جديدة من العنف الوحشي الذي لم يشـهد له العراق الحديث أي مثيل، والتـي لا يمكـن مقارنتهـا إلا بالحكايـات المكتوبة عـن غـزو المغـول للعـراق.. وطبعًـا هنـا لا نريـد الـدخول في تفاصيل الحكاية المعروفة.. لكن السـماح لهـؤلاء الرعـاع بارتكـاب مـا ارتكبـوه مـن إثـم وعـدم محـاكمتهم محاكمـة حقيقيـة قـد أسسـوا لتقليد(ثوري!) جديد تمام الجدة في قاموس العنف العراقي، والمؤسـف له، أن هذه الأعمال تمت تحت يافطة مباركة وتنظـيم الحـزب الشـيوعي العراقي، وأن هؤلاء الرعاع، هم إما من أعضـاء الحـزب أو المتعـاطفين معه.

كان من الممكن تفهم عقلية ناس عسكر أنصاف مثقفين، مثل الحكم القائم برئاسة عبد الكريم قاسم التي تمت المذبحة تحت أبصـارهم إن لم نقل مباركتهم، لكن من غير المفهوم تمامًا حينذاك-قبـل انهيـار الاتحـاد السوفيتي والمنظومة الشيوعية وانتشار الفضـائح- أن يقبـل الأمـر مـن حزب يدعي الأهداف النبيلة ويحمـل رسـالة التغيـير نحـو الأفضـل!! وهكذا تجاوزت قيادة الحزب هذه (الهفوة) وسـلمت ملفهـا إلى العزيـز (نسيان)!.. ولم نسمع أو نقرأ.. أو نشاهد.. أي عمليات تطهـير حزبيـة أو استقالات أو عقوبات أو طرد لأي من أعضاء الحـزب وخصوصـًا

الذين ساهموا بشكل مباشر في تلك المذبحة أو حتى عقوبة الإيقاف!

بل في الحقيقة لقد تمت مباركة هذه المجزرة والتغاضي عنها، بل أراد الحزب الشيوعي استغلال هذه القوى الرعاعية في إرهاب خصومه السياسيين والعسكريين، مهددين بها أي شخص أو حزب أو مدينة!..وكأنهم امتلكوا سلاحًا فتاكًا لا يقدر على استعماله غيرهم- مع أن السنين حكت لنا فيما بعد كيف انقلب سلاحهم الفتاك هذا عليهم وفتك بهم فيما بعد- لم يكن صمت القيادة مفهومًا..أما الذي يشكل علامة استفهام كبيرة ومحيرة هو صمت مثقفي هذا الحزب، ولم يكتف البعض منهم بالتزام صمت قيادته والضحك في الخفاء، بل كانوا أكثر جرأة و(باركوا) هذه العملية الرعاعية وأطلقوا عليها صفة(الثورية)!.. وكما يقال في النهاية إن السحر ينقلب على الساحر.. فقيادة الحزب والحاكم العسكري اللذان كانا يتنافسان على كسب ود وتحريك (الجماهير) بإشارة من أصبع أحدهما، لم يحسبا حساب أصبع ثالث كان قادرا على تحريك هذه(الجماهير). فكمية السم العنفوي الذي سقوه لهذه الجماهير كانت تفوق كل الحسابات، فانقلبت عليهم مع مجيء بعض المغامرين وشذاذ الآفاق والذين مع إطلالتهم الأولى قد وعدوا هذه الجموع من(الجماهير) بكميات أكبر من العنف الترياقي الذي اعتاده الشعب. ففي عملية تافهة وسخيفة بكل القياسات والتفاصيل، استولى القادمون الجدد على السلطة ببساطة مذهلة وذلك في عام ١٩٦٣.. وكان انتماء هؤلاء حسبما يدعون إلى تيار القومية العربية.. وبعد أن استولوا على الحكم في العراق.. وهو في الحقيقة ليس سوى مبنى وزارة الدفاع ومبنى الإذاعة !.. وبعدها يسقط العراق كله في الظلام

والصمت والترقب المتوتر، فهذان المبنيان هما قلب العراق النابض!

كان الترقب متوترًا والأنظار تنتظر الكشف عن هوية الحكام الجدد وهذا شيء مهم جدًا في الشارع العراقي الذي ينتظر أن يضبط إيقاعه على درجات العزف القادمة من الجوقة الجديدة، وعلى أول نغمة سيعزفها هؤلاء سترقص(الجماهير) من زاخو إلى الفاو..وهكذا كان.. وانقلبت (الجماهير الثورية) على الحاكم العسكري الذي حوصر وقتل على مرأى من الجميع في وزارة الدفاع..بل لقد تم نقل مشهد مقزز يعبر عن استهانة بكل محرمات الأرض والسماء، فعندما شوهد عبر الشاشات الزعيم عبد الكريم قاسم الذي مزق الرصاص جسده، جاء شخص ما ليرفع رأس الميت من شعره ويبصق بحقد في وجهه على مرأى من الشعب كله..! وكما في السابق ، فقد تم تنصيب القتلة الجدد حكامًا جددًا.. وخرجت إلى الشارع (الجماهير) راقصة محتفلة بالعهد الجديد ولاعنة العهد البائد! وصاحب هذه الرقصة البدائية افتتاح موسم اصطياد الشيوعيين الذين كانوا قد تحالفوا مع النظام البائد وحيثما وجدوا.. حيث تم قتل المئات منهم وتوزع الباقون بين السجون التي مورس فيها أشد أنواع التعذيب والاغتصاب، مذكرة بمحاكم التفتيش السيئة الصيت والتي سادت في أوربا أثناء القرون الوسطى ضد الهراطقة.. في عملية بشعة تخلو من أي رحمة أو إنسانية أو دينية. ووجد الحزب الشيوعي العراقي ذو القاعدة (الجماهيرية) الواسعة والتي كان الحزب يتبجح بتحريكها بأصبعه!.. وحيدًا في ساحة المواجهة الهمجية، وأن هذه (الجماهير) تلاحقه بنفس الأسلحة التي سلحها بها ذات مرة في الموصل وكركوك!..ودارت الدوائر

عليهم وأصبح اسم (شيوعي) يثير جنون هذه (الجماهير)المتعطشة لسفك الدماء، وأسلمت رقابهم بدم بارد إلى مجرمي ما سمي حينذاك بـ (الحرس القومي)، الذي أنشئ على نفس مبادئ الحرس النازي أو قوات العاصفة إبان الحكم النازي المقيت في ألمانيا.وبعد أن أثخن جسد الحزب بالجراح، تآمر واحد من القادة الجدد على رفاقه واستطاع إقصاءهم ليتسلم القيادة وينفرد بها، لقد كان(عبد السلام عارف) الذي أراد التنصل من الأفعال الشائنة التي قام بها رفاقه في الثورة وأطلق على حرسهم اسم(الحرس اللاقومي).. لكنه وكما من سبقوه، لم يقد إلى المحاكم الحقيقية كل من أساء وقتل وعذب، بل لجأ إلى المحاكم ليتخلص من خصومه السياسيين واكتفى بالتنكيل برفاق انقلابه.كل هذا حدث في وتيرة متسارعة وغريبة الإيقاع، لكن هذه الأحداث رسخت في ذهنية المواطن العراقي صورة العنف الدموي وشرعت هذه الانقلابات غير الشرعية كل ما يليها من أعمال بربرية، لأن كل من يستولي على الحكم يمارسها ضد أعدائه وسلاحه المفضل هو (الجماهير) التي اعتادت على لعق الدماء والاعتياش عليها. كذلك لم يبق العنف مقصورًا على السياسيين المتكالبين على كرسيي وزارة الدفاع والإذاعة، بل تعداه إلى (الجماهير) التي أصبحت تتحفز لرؤية السياسيين- أيا كانت أيديولوجيتهم- وهم معلقون على الحبال وجثثهم تسحل في الشوارع، وكذلك لما يصاحب هذه الأعمال (الثورية) من عمليات سرقة ونهب وهتك أعراض.

بعد أحداث عام ١٩٦٣ أصبح المرض عضالاً واستمكن من رقبة (الجماهير) ولم ينج حتى المثقفون العراقيون منه، وأصبح من النادر أن

يرى مثقف عراقي يقف بنفسه بعيدًا عن المشهد السياسي المتصارع بوحشية حيوانية، بل انغمسوا بهذه اللعبة الجهنمية وغرقوا فيها، وأصبحنا نرى مثقفين محسوبين على هذا التيار أو ذاك أو ذاك، كذلك فقدوا المبدئية وأصبحوا يتنقلون بين هذا الحزب أو ذاك كما يتنقل الشخص بين حجرات المبغى بدون أي وازع أخلاقي أو مبدئي، فمن كان في الأمس شيوعيًا تراه بعد ذلك بعثيًا وغدًا سترونه إسلاميًا أو ليبراليًا جديدًا وهكذا..كما أن الأثر السيئ الذي خلفه مثقفو تلك الفترات الحالكة من عمر العراق أصبح من الصعب محوه، فقد أسسوا ثقافة شعبوية ليست نخبوية قادرة على قيادة المجتمع نحو التطور الحضاري كما في المجتمعات السليمة، نقول ثقافة شعبوية وظيفتها دغدغة المشاعر الدونية(للجماهير) وغرائزها، بل كانوا يتبارون بجنون في إثارة غرائز العنف الكامنة في ذاكرة الشعب، وخصوصًا منهم الشعراء العراقيون، وأصبح السجال المثير في أحقية سبق البدء في الشعر الحر بين نازك الملائكة وبدر شاكر السياب أهم بكثير من إبراز جماليات الشاعرين وترسيخ قيم الجمال والحب والإنسانية عند الشعب.. والشعر كما هو معروف هو أقرب الفنون الجميلة إلى وجدانية الشعب العراقي، لهذا اندفع هؤلاء في المقدمة لإسعار (الجماهير) وتحفيزها على إسالة دماء السياسيين العراقيين على أسفلت المدن العراقية، كما كان يفعل تمامًا أجدادهم الجاهليون فعندما كان يولد في القبيلة العلانية شاعر تحتفل به أكثر من احتفالها بالمقاتلين، وهكذا كان السجال بين شعراء القبيلتين الشيوعية والبعثية والآن دخلت إلى الساحة القبلية العراقية قبيلة الإسلاميين الجدد!

في عام ١٩٦٨ .. حلت بالبلد الطامة الكبرى بعودة التيار القومي البعثي إلى حكم البلد، وطبعًا عن طريق انقلاب وعملية مغامرة للاستيلاء على المبنيين الأهم، وزارة الدفاع والإذاعة، لكن هذه المرة جاءوا من أعماق القرى البدائية المتخلفة ويحملون معهم قسوة فريدة من نوعها، ومع أن جذور العنف السياسي قد أوغلت بعيدًا و بسرعة مذهلة في المجتمع، بعد أن مهد له الطريق سياسيون وعسكريون وأحزاب ومثقفون، إلا أن العنف هذه المرة كان من نوعية أثقل عيارا أسلمت بعده البلد إلى مصير مجهول تمامًا. مع القادمين الجدد أصبحت حروب العراق لا تتوقف خصوصًا على الجبهة الشمالية وضد مواطنين عراقيين من الأكراد..

استنفار(الجماهير) وعسكرة المجتمع التي قامت على قدم وساق، وارتفاع شعار(لا صوت يعلو على صوت المعركة) بعد هزيمة الجيوش العربية عام ١٩٦٧ أمام إسرائيل، التي أصبح لها طعم العلقم على كل فم.. كان التحضير جاريًا لنوعية مختلفة من العنف التي لم يشهد لها العراق بعد من مثيل والتي أوصلته إلى نظام المقابر الجماعية.. في تلك الفترة الحالكة من تاريخ العراق السياسي والمعاش، شهد البلد مهزلة جديدة من مهازله السياسية التي لا تنتهي أو لعبة جديدة اسمها (الجبهة الوطنية) بين الحزبين الكبيرين عندها، الحزب الشيوعي العراقي وحزب البعث العربي الاشتراكي، وكلاهما لم يجف دمه بعد مما واقعه بعضهما بالبعض.. مهما قيل عن هذه المهزلة السياسية هو كذب مفضوح وتبرير سمج في وقت ضاع فيه العراق وإلى الأبد.. كلاهما دخل هذه الجبهة المزعومة وهو يحمل نوايا الغدر بالطرف الثاني، كلاهما كان

يعرف والسؤال هو متى ستبدأ المواجهة وليس احتمالية وقوعها!.. حتى (الجماهير) التي كانت هدف الحزبين وأملهما بتحويل هذا السلاح الفتاك لصالحه، كانت تعرف أن المواجهة قادمة وأنها في النهاية كانت ستلعق دماء أحدهما وليس مهمّا من يكون!

كانت (الجماهير) هي الوحش الرابض والمتربص والعارف أن الغدر هو من خصال الأحزاب العراقية، وعليه كان يمني النفس برؤية أحداث ساخنة وعما قريب.. وكان كلا الحزبين يعد نفسه للضربة الأولى، ولكن يبدو أن الحزب الشيوعي وعلى ما جبل عليه من رومانسية ثورية قد تسلل إلى أوصال جسده المثخن بالجراح بعض الخدر، أما الطرف الآخر القادم من عمق الريف المتخلف المتوحش فقد كان أشد يقظة ويحمل كميات أكبر من نوايا الغدر، وهكذا كان

وانتهت المسرحية الهزلية الجبهوية بمجزرة هائلة أعدها البعثيون إلى رفاق الأمس وأنهوا أسطورة الحزب الشيوعي العراقي بشكل نهائي وانفردوا بالحكم بدون أي منغصات إلى أن أسقطهم الأمريكان عام ٢٠٠٣. كما انقض الوحش الرابض مع المنتصرين على المهزومين وكانت كمية الدم كبيرة هذه المرة، كما انقض الحكم الجديد على هذا الوحش المخيف(الجماهير) في محاولة لامتصاص إمكانياته بإشراكه في سلسلة حروب متواصلة أوصلت البلد في النهاية إلى الهلاك فقد أدرك الحكم الجديد أن عدوه الأول هو هذه(الجماهير)لهذا دخل معها في صراع وجودي مخيف تراوحت بين المكرمات والهبات إلى المقابر الجماعية..

وكلاهما أنهكت قواهما واستنزفت، ومع دخول الأمريكان إلى المدن

العراقية خرج هذا الوحش ثانية ليمزق نفسه هذه المرة وتاريخه وذاكرته، فلم تسلم مدرسة أو جامعة أو مستشفى أو مكتبة أو متحف أو دائرة حكومية من أعمال السلب والنهب والتدمير..والإبادة!

وهنا بدا موسم اصطياد البعثيين، بعد أن أطلق هذا الحزب نفس الوحش (الجماهير) لاصطياد الشيوعيين. في النهاية لم تعد الأحزاب قادرة على العمل السياسي في ساحة ساهموا هم قبل غيرهم على تسميمها وجعلها غير صالحة لأي شيء وأرضًا يبابًا..

الإسلاميون الذين انتظروا طويلاً يحاولون بهمة الدخول إلى الأرض البور للمنافسة لكنهم يعرفون أن (الجماهير) لا يمكن أن تبقى (جماهير) وأن من المهم جدا تفتيت وتحييد هذا الوحش، لهذا يدخلون بهمة وثقة إلى الساحة العراقية لأنهم واثقون من سلاحهم الجديد.. الطائفية.. فهذا السلاح الفتاك لم تستعمله (الجماهير) من قبل، والإسلاميون يعتقدون أن هذا السلاح الذي ينزلون به إلى الميدان قادر على ترويض وتفتيت هذا الشعب الذي لم تعد تفيد فيه أي أنواع من المسكنات أو المهدئات.فقد أثخن جسده بالجراح وتلبد.

الفهرس